الدكتور
عبد الحميد محمود متولى

الأسس

في

علوم القرآن

الأساس

في

علوم القرآن

الدكتور
عبد الحميد محمود متولي
أستاذ التفسير وعلوم القرآن
بكلية الدراسات الإسلامية - جامعة الأزهر

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الحمدلله الذى هدانا لهـذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله، نحمده سبحانه حمدا يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه راجين منه أن يهيئ لنا من أمرنا رشدا.

ونصلى ونسلم على نبينا ورسولنا محمد بن عبدالله الذى أرسله مولاه بالهدى ودين الحق بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، وسلام على المرسلين والحمدلله رب العالمين.

وبعد:

فهذه بحوث ودراسات فى علوم القرآن تضم ما يحتاج إليه الدارس فى دراسته والشاب المسلم فـى ثقافتـه مع وضوح المعنى وسهـولة اللفظ لعل الله أن يُيَسِّر به فهم كـتابه العزيز الذى لايأتيـه الباطل من بين يديه ولا من خلفـه، ذلك الكتاب الذى لاريب فـيه «نوّر الله به القلوب وأنزله فى أعـجز أسلوب فـأعيت بلاغـته البلغاء وأعجزت حكمته الحكـماء وأبكمت فصحاته الخُطباء»[1] كما أشاد بذلك الزركشى فى برهانه رضوان ربى تبارك وتعالى عليه.

والمولى الكريم نسأل أن يُعلمنا الكتاب، وأن يُلهمنا الصواب، وأن يهدينا سواء السـبيل إنه على مـا يشاء قـدير وبالإجابة جـدير، ﴿وما توفيـقى إلا بالله عليـه توكلت وإليـه أنيب﴾[2] ﴿ربنا عليـك توكلنا وإليك أنبنـا وإليك المصيـر﴾[3] ﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾[4].

المؤلف

---

(١) البرهان فى علوم القرآن للزركشى جـ١ ص٣.

(٢) من الآية ٨٨ هود.

(٣) من الآية ٤ الممتحنة.

(٤) من الآية ٣٢ البقرة.

المقدمـــة

والمعارف التى تُعين المفسر على فهم كتاب الله العزيز

اشترط العلماء فى المفسر أن يكون ملما بجملة من العلوم[1] ليستطيع أن يفسر القرآن الكريم تفسيراً مقبولا.

أولا : **علم اللغة والنحو والصرف:** ليتسنى له معرفة معانى الألفاظ واشتقاقاتها والنواحي الإعـرابية على اخـتلافـها بما قـد تؤدى إليه من تعـدد المعنى والنواحى البلاغية وإعجازها ووضوح دلالتها.

ثانيـا : **علم أصول الدين:** وهو علم الكلام وبه يستطيع المفسر أن يستدل على ما يجب وما لايجب فى حقه تعالى ومـا يجوز وما لايجوز ليفهم الآيات المتعلقة بالنبوات والمعاد فهماً صائباً.

ثالثـــا : **علم أصول الفقه :** الذى به يعرف كيفـية استنباط الأحكام من الآيات والاستـدلال عليها ويعـرف المجمل وعكسه وهو المبين والعـام والخاص والمطلق والمقيّـد ودلالة الأمـر وهل هو للوجوب أو النـدب أو الإباحة ودلالة النهى وهل هو للحظر أو الكراهة وماسوى ذلك.

رابعـا : **الإلمام ما أمكن بالأحـاديث النبوية الصحيـحة** التى تعين على فـهم الكثيـر من الآيات وأحكامهـا وتعين على تفسيـر المجمل والمبـهم منها لتوضيح ما قد يُشكل عليه.

خامسا : من العلوم التى يحتاج إليـها المفسر **علوم القرآن** وما تحويه دراسـته من مفاهيم وحكم بـالغات والتى سنفصل الحديث عن بعض جـوانبها تحت عنوان مفهوم علوم القرآن بمعنى الفن المدون وحكمة دراسته.

---

(١) التفسير والمفسرون للذهبى بتصرف وتلخيص جـ ١ من ص ٢٥٥ إلى ص ٢٥٧.

المبحث الأول
مفهوم علوم القرآن

أولا : المعني اللغوي لعلوم القرآن:

نوضح معنى كل من : **علوم، وقرآن**:

فالعلوم : جمع علم «وهو مصدر يرادف الفهم والمعرفة»[1] واليقين، والعلم نقيض الجهل.

يقول ابن منظور: «وعلمت الشيء أعلمه علما، عرفته؛ وعلم الأمر وتعلمه أتقنه»[2] يعنى أدركه وفهمه وأحاط به ودرسه.

ويقول الراغب: «العلم إدراك الشيء بحقيقته»[3] إدراكا جازما حقيقيا مُطابقا للواقع ناشئاً عن دليل.

فعلم كذا مثلا هو جملة مسائل مضبوطة بجهة واحدة فى وحدة موضوع وغاية.

أما القرآن بالمعنى اللغوى: والذى يقول عنه سبحانه (بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ)[4] «فلفظ قرآن مصدر مرادف للقراءة»[5]: أى التلاوة تقول قرأ يقرأ قرآنا وقراءة بمعنى تلا يتلو تلاوة.

يقول الراغب: «والقراءة ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض فى الترتيل»[6] فيتكون منها منظوم التلاوة وهى الآيات.

---

(١) مناهل العرفان جـ١ ص١٢.

(٢) لسان العرب لابن منظور طبعة بيروت جـ١٢ ص٤١٧ ومختار الصحاح ص٤٥٢.

(٣) مفردات الراغب ص ٣٥٥.

(٤) آيات ٢١، ٢٢ سورة البروج.

(٥) مناهل العرفان جـ١ ص١٤.

(٦) مفردات الراغب ص٤١٤.

«ثم نقل لفظ قرآن هذا من المصـدر المرادف للقرآة وجعل اسماً لـلكلام المعجز المنزل على النبى مـحمد ﷺ من باب إطلاق المصـدر على مفـعوله» [١] : يعنى إطلاق قرآن على المقروء.

ويقول ابن منظور «قـرآن بمعنى الجمع لأنه يجـمع السور ويضـمـها» [٢]: فهو مشتق من قرنت الشيء بالشيء إذا ضممت أحدهما إلى الآخر.

يقول تعالى: **﴿إن علينا جمعة وقرآنه﴾** [٣] أى جمعه فى صدرك وقراءته **﴿فإذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾** [٤] أى قراءته **(ثم إن علينا بيـانه)** [٥] - فإذا بيناه لـك بالقراءة وبنطقك إياه فاعمل بما بيناه لك لتُثاب على ذلك.

ويقال للقرآن فرقان أيضا:

باعتبار أنه كلام فارق بين الحق والباطل أو مفروق بعضه عن بعض فى النزول أو فى السور والآيات قـال تعالي: **﴿تبارك الذى نزل الفـرقان على عـبده ليكون للعالمين نذيرا﴾** [٦] وهاديا وبشيرا ومرشدا، وقوله جل شأنه: **﴿وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مُكث﴾** [٧] يعنى على مهل وعلى فترات؛ تثبيتا لِقلبك وقلب من يقرأ.

وهذان الاسمان قرآن وفـرقان هما أشهر أسمـاء الكتاب العزيز الذى **﴿لايأتيه البـاطل من بين يديه ولا من خلفـه، تنزيل من حكيم حـميـد﴾** [٨] تنزيـل من رب العالمين فلا يتطرق إليه الباطل من جهـة من الجهات ولا مجال للطعن فيه، وليس

---

(١) مناهل العرفان جـ١ ص١٤ ومابعدها.

(٢) لسان العرب لابن منظور جـ١ ص ١٢٨.

(٣) آية ١٧ القيامة.

(٤) آية ١٨ القيامة.

(٥) آية ١٩ القيامة.

(٦) آية رقم ١ الفرقان.

(٧) من الآية ١٠٦ الإسراء.

وقراءة فرقناه بتشديد الراء لابن مُحيصن القراءات الأربع عشر للبناء ص٢٨٧.

(٨) الآية ٤٢ فصلت.

للبطلان إليه سبيل لأنه مُنزّل من رب العالمين من إله حكيم فى تشريعه وأفعاله محمود من خلقه لكثرة نعمه وافضاله.

أما القرآن بالمعنى الشرعى: فهو «كلام الله تعالى المعجز المنزل على النبى محمد ﷺ المكتوب فى المصاحف المنقول بالتواتر المتعبد بتلاوته من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس.

وعبارة كلام الله تعالى يخرج به كلام غيره من سائر المخلوقين، وقوله: المنزل على النبى محمد ﷺ يخرج به المنزل على غيره من الرسل كألواح موسى وإنجيل عيسى وصحف إبراهيم عليهم السلام.

وخرج بالمنقول تواترا جميع ما سوى القرآن من منسوخ التلاوة والقراءات غير المتواترة نحو قراءة ابن مسعود متتابعات عقيب قوله تعالى: ﴿**فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام**﴾[1] - وكقراءة ابن مسعود أيضا لفظ متتابعات عقيب قوله سبحانه ﴿**ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر**﴾[2] - «فإن شيئا من ذلك لايسمى قرآنا ولايأخذ حكمه»[3] - فقرآنية القرآن ما أجمع القراء على تواتره والمكتوب فى المصاحف والمحفوظ فى الصدور والذى حفظه المولى سبحانه وتعالى عن التبديل أو التحريف: ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾[4] والمعنى نحن بعظمة شأننا نزلنا عليك القرآن يا محمد ونحن الحافظون له نصونه عن الزيادة والنقصان والتبديل والتغيير كما جرى فى غيره من الكتب.

«والقرآن الكريم يطلق على جميع أجزائه ككل، كما يطلق على بعضه، فمن قرأ القرآن كله أو بعضه يقال عنه إنه قرأ القرآن أو قرأ قرآنا والقرينة والسياق يحددان المراد»[5] ، فالموضوع الذى تعالجه الآية أو الآيات يلقى الضوء على مقصود لفظ قرآن ويحدده.

---

(١) من الآية ٨٩ المائدة.

(٢) من الآية ٨٥ البقرة.

(٣) مناهل العرفان جـ ١ ص ١٩.

(٤) آية ٩ الحجر.

(٥) مناهل العرفان جـ١ ص١٩.

وفى القرآن مـا يفيد أن بعض القـرآن يطلق عليه لفظ القـرآن ومن ذلك قوله تعالي﴿وإذا قـرأت القـرآن جـعلـنا بينك وبين الذين لايؤمنـون بالآخـرة حـجـابا مستوراً﴾[1] -يعنى إذا قرأت شيئا من القرآن الكريم.

كما أن فى القرآن مايفـيد إطلاق اللفظ على الكل وذلك كقوله تعالى: ﴿ورتل القرآن ترتيلا﴾[2] يعنى كلما قرأت القرآن رتله بقواعد الترتيل المعروفة، وفى قوله سبحانه (فاقـرءوا ماتيـسر من الـقرآن ـ وقوله: فـاقرءوا مـاتيسـر منه[3] يعنى من القرآن.

ويقول الزرقانى: «قد يقـال إن إطلاقه على الكل حقـيقة وعلى البعض مـجاز والتحقيق أنه مشترك لفظى لكل من كل القرآن أو بعضه بدليل التبادر عند إطلاق اللفظ على الكل وعلى البـعض كليهمـا: والتبادر أمـارة الحقيـقة»[4] ـ يعـنى أن إطلاق قرآن حقيقة على كله أو على بعضه على حد سواء.

يقول الراغب: «تسمـية هذا الكتـاب قرآنا من بين كـتب الله لا لكونه جامـعا لثمرة كتبه وحسب بل لكونه جـامعا لثمرة جميع العلوم»[5]ـ كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وكل شيء فصلناه تفصيلا﴾[6] ـ أى وكل أمـر من أمور الدنيـا والدين بيناه أحسن تبيين، وقوله جل ذكره﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾[7].

والمعنى ونزلنا عليك القرآن المنير بيانا شافيا بليغا لكل ما يحتاج الناس إليه من أمور الدين وهداية للقلوب ورحمة للعبـاد وبشارة للمسلمين الذين سلكوا السبيل المقيم المستقيم.

---

(١) الآية ٤٥ الإسراء.

(٢، ٣) من الآية ٢٠ المزمل.

(٤) مناهل العرفان جـ١ ص٢٣.

(٥) مفردات الراغب ص ٤١٤.

(٦) من الآية ١٢ الإسراء.

(٧) من الآية ٨٩ النحل.

ثانيا: المعني الاصطلاحي لعلوم القرآن:

أ- علوم القرآن بالمعني الإضافي:

هاتان الكلمتان علوم القرآن مركبتان من مضاف ومضاف إليه، وهذا المركب الإضافى يشير إلى طوائف المعارف المتصلة بكتاب الله عز وجل من كل علم يخدم القرآن أو يستند إليه وكانت كتابات متناثرة هنا وهنالك قبل معرفة وتدوين هذا العلم كفنّ مدوّن، وتشمل هذه الكتابات على سبيل المثال لا الحصر، علم التفسير والقراءات وإعجاز القرآن وبلاغته وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ وإعراب القرآن وغريب القرآن وأحكام القرآن وغير ذلك فكأنها تشمل العلوم الدينية والعربية المتصلة بفهم القرآن الكريم وما يتعلق به بوجه عام.

وأشار الزرقانى «**إلى أن القرآن كتاب هداية وإعجاز فكل علم يتصل بالقرآن من ناحية قرآنيته أو يتصل به من ناحية هدايته أو إعجازه فذلك من علوم القرآن**»[1] ـ مما يدل على مدى اتساع مضمون هذا التعريف ليشمل العديد مما كتب فى هذا المجال من كل صوب وحدب.

ب – أما مفهوم علوم القرآن بمعني الفن المدوّن وحكمة دراسته:

فهذا المفهوم مستمد من هذه العلوم السابق الإشارة إليها ومأخوذ منها ويمكن تعريفه بأنه «مباحث تتعلق بالقرآن الكريم من ناحية نزوله وترتيبه وجمعه وكتابته وقراءته وتفسيره وإعجازه وناسخه ومنسوخه»[2] وذلك ليتأكد المفسر من إحكام الآية وأنها لم يرد لها ناسخ ومعرفة المحكم من الآيات الواضح الدلالة والذى لايحتمل أوجها، والمتشابه منها والذى يحتمل أوجها وجهدا فى فهم مراده وبمعرفة القراءات تفيد معان متعددة وأحكام متنوعة، ومعرفة خصائص وطابع المكى والمدنى من الآيات يُعين على فهمها كذلك، ودلالة القصص القرآنى وما يحويه من عبر عن طبائع البشر وحياتهم ومما يفيد دارس التفسير كذلك الحِكَم

---

(١) مناهل العرفان جـ ١ ص ٢٤.

(٢) مناهل العرفان جـ١ ص٢٧.

فيما وراء ضرب الأمثال من عظات بالغات وما أقسم به المولى عز وجل فى كتابه العزيز ولماذا أقسم وبم أقسم وأهداف القسم والنواحى البلاغية فيه.

علما بأنه سبحانه يقسم بماشاء وأنى شاء، وخاصة فى مُفْتتح بعض السور كالقيامة والبلد، فى حين أن البشر لايجوز لهم أن يقسموا إلا بذاته أو بأحد صفاته أو القرآن الكريم.

وتجدر الإشارة إلى ما ذكره صاحب البرهان بقوله **«ولما كانت علوم القرآن لاتنحصر ومعانيه لاتُستقصى وجبت العناية بالمقدور الممكن»**[1] - فما لايُدرك كله لايترُك كله.

وبهذا ينتهى الحديث فى هذا المبحث عن مفهوم علوم القرآن بالمعنى اللغوى لكل من علوم وقرآن، كذلك معنى قرآن بالمفهوم الشرعي، وأيضا المعنى الاصطلاحى لعلوم القرآن بكل من معنييه الإضافي وكفن مدون حتى نكون على وضح السبيل وعلى الله قصد السبيل.

(١) البرهان للزركشى جـ١ ص٩.

المبحث الثانى
تاريخ علوم القرآن وتطوره

لم يُطلق لفظ علوم القرآن على تلكم المعارف السابق الإشارة إليها فى العصور الأولى على عهد الرسول ﷺ والصحابة من بعده لأن أحدا من العلماء لم يجمعها فى كتاب واحد بل كانت فى بعض عصور لاحقة على شكل كتابات متناثرة يشتمل كل منها على فرع من فروعها، ذلك لأن معارفهم لم توضع آنذاك كفنون مدونّة ولم تجمع فى كتب مؤلفة لأنهم لم تكن لهم حاجة إلى التدوين والتأليف فالله تبارك وتعالى تكفل ببيان قرآنه لرسوله ﷺ فى قوله سبحانه **﴿ثم إن علينا بيانه﴾**[١] ـ وكان الرسول ﷺ يوضح للأصحاب الذكر الحكيم بما علمّه ربه مصداقا لقوله تعالى: **﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾**[٢] فكانت السنة المباركة هى المذكرة التفسيرية.

وأدرك الأصحاب رضوان الله عليهم ما أدركوا من علوم القرآن ومن إعجازه بسليقتهم وصفاء فطرتهم رغم أنهم كانوا أميين وأدوات الكتابة لم تكن ميسورة لديهم ـ فلم تظهر الحاجة آنذاك إلى تقعيد قواعد علوم القرآن[٣].

وكان الصحابة مَضرب الأمثال فى نشر الإسلام وتعاليمه والقرآن وعلومه. وكانت عنايتهم شديدة بحفظ القرآن والإحاطة بجوانب المعرفة به وأسباب نزوله وفقهه وكانوا يسألون الرسول ﷺ عن كل ما يعرض لهم مما يتعلق بقضاياه لإرشادهم إلى ما أشكل عليهم من ألفاظ القرآن ومن ذلك "تفسير معنى الظلم فى قوله تعالي: **﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾**[٤] ـ قال الأصحاب وأينا

---

(١) آية ١٩ القيامة.

(٢) من الآية ٤٤ النحل.

(٣) مناهل العرفان جـ١ ص٢٩ بتصرف.

(٤) من الآية ٨٢ الأنعام.

لم يظلم فنزلت ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾[1]» [2] - فَجَعْلُ الناس نظيرا لله فى التقديس ظُلم واضح وضلال بعيد عن سواء السبيل.

وأهم أعلام الرعيل الأول من الأصحاب:

ما ذكره الزركشى عن ابن عطية: «فأما صدر المفسرين والمؤيد فيهم فعلى بن أبى طالب ويتلوه ابن عباس وهو تجرد للأمر وكمّله وتتبعه العلماء عليه كمجاهد من التابعين المتوفى سنة ١٠١ هـ وهو أول من ألف فى التفسير يروى أنه كان يسأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواحه فيقول له ابن عباس اكتب حتى سأله عن التفسير كله.

وفى ذلك العهد جمع سعيد بن جبير تفسيراً آخر للقرآن وسعيد هذا قتله الحجاج عام ٩٥ هـ.

ثم جاء من بعدهم طبقة فطبقة فجددوا واجتهدوا»[3] - وكل أخذ من سابقه.

وفى القرن الثالث الهجرى هيأ الله للأمة الإسلامية من جمع تفسير القرآن وهو الإمام أبو جعفر الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ وتفسيره: جامع البيان فى تفسير القرآن.

ومن فضل الله عليه أن كل من جاء بعده من المفسرين كانوا عالة عليه فهو أول تفسير جامع تعرض فيه للأقوال المأثورة عن السلف ورجح بينها[4].

ثم توالت الكتابات المتفرقة فى الناسخ والمنسوخ وأسباب النزول وإعجاز القرآن وإعرابه مما لاداعى لذكر تفاصيله فى هذا المقام.

أما علوم القرآن بمعنى الفن المدوّن:

والذى يجمع ألوانا مختلفة من هذه المعارف فى مؤلف واحد:

---

(١) من الآية ١٣ لقمان.

(٢) صحيح البخارى جـ٦ كتاب التفسير ص ٧١ عن عبد الله بن مسعود.

(٣) البرهان للزركشى جـ١ ص٨.

(٤) التفسير والمفسرون للذهبى جـ١ ص ٢٠٢.

فمنهم ابن الجـوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ فى كـتابه فنون الأفنان فى عـجائب علوم القرآن [1] .

ومن أهم من كتب فى هذا الفن وتعتبر كتاباتهم من المصادر الأصلية فيه:

١ ـ بدر الدين الزركشى المتوفى سنة ٧٩٤ هـ ـ وكتـابه مشهور بعنوان البرهان فى علوم القرآن وهو كتاب جامع مشـتمل على سائر أنواع علوم القرآن فى أربعة مجلدات.

٢ ـ جلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ وكتابه بعنوان الإتقان فى علوم القرآن فى جزئين.

٣ ـ مناهل العرفان فى علوم القرآن للشيخ محمد عبدالعظيم الزرقانى ويقع فى مجلدين وأسلوبه سهل أخاذ دافع فيه عن القرآن ضد المبشرين والملحدين.

بهذا نكون قـد استعرضنا التطور الـتاريخى لهذا العلم من أول عصـر الرسول الكريم ﷺ وأهم الكتابات والأفكار فى هذا المجال حتى وقـتنا الحاضر والتى تنير السبيل أمام الدارسين والباحثين والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

---

(١) مباحث فى علوم القرآن لمناع القطان ص١٤.

المبحث الثالث
فى معنى نزول القرآن جملة ومنجما أى مفرّقا

أنزل الله تعالى القرآن الكريم على رسولنا محمد ﷺ لهداية البشرية فكان نزوله حدثا جَلَلاً يُؤذن بمكانته لدى أهل السماء والأرض.

فإنزاله الأول فى ليلة القدر فى الليلة المباركة أشعر العالم العلوى من ملائكة الله بشرف الأمة المحمدية التى أكرمها الله تعالى بهذه الرسالة الجديدة لتكون خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

ونزوله الثانى مُفرقًا مُنجمًا حسب الأحداث لِيُقْنِعَ بها، القوم تَثْبيتا لِقلبه وتَسْلية له وتدرجا مع الوقائع حتى أكمل الله تعالى الدين وأتم النعمة وعلمّنا سبحانه من لدنْه مالم نكن نعلم وكان فضل الله علينا عظيما.

والعلم بنزول القرآن: أساس للإيمان به وأنه كلام الله سبحانه وأساس للتصديق بنبوته ﷺ وأن الإسلام حق.

قال الراغب: **«الفرق بين الإنزال والتنزيل، أن التنزيل يشير إليه إنزالة مُفرقا ومرة بعد أخرى والإنزال عام».**[1]

إذن فالتنزيل على مراحل والإنزال جملة أى مرة واحدة.

يقول تعالي: **﴿وبالحق أنزلناه وبالحق نزل﴾**[2] - أى أنزلنا القرآن من لدنا بالحق.

أولا: نزول القرآن جملة:

يقول تعالى فى كتابه الكريم: **﴿شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى**

---

(١) مفردات الراغب ص ٥١٠.

(٢) من الآية ١٠٥ الإسراء.

للناس وبينات من الهدى والفرقان﴾[1] - يعنى فارقات بين الحق والباطل لهداية الناس للتى هى أقوم، ويقول سبحانه : ﴿إنا أنزلناه فى ليلة القدر﴾[2] - يعنى أنزلنا القرآن، ويقول أيضا : ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾[3] - فى ليلة ذات قدر وشأن على نبى ذى قدر فى شهر مبارك ذى قدر كذلك.

وقبل الحديث عن نزول القرآن الذى نزل به الروح الأمين على قلب الرسول الكريم عليه من ربه أفضل صلاة وأتم تسليم، تجدر الإشارة إلى أنواع الوحى.

يقول الراغب: «ويقال للكلمة الإلهية التى تُلقى إلى أنبيائه وأوليائه وحى وذلك أضرب حسبما دل عليه قوله ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه مايشاء﴾[4] [5] » - يعنى يُعلمه بما يشاء إعلامه به.

ويقول الزرقانى: «معنى الوحى فى لسان الشرع أن يعلم الله تعالى من اصطفاه من عباده كل ما أراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم ولكن بطريقة سرية خفية غير معتادة للبشر»[6] - والله سبحانه على كل شيء قدير وهو جلت حكمته يصطفى من الملائكة رُسُلا ومن الناس ويعلمهم من لدنه علما .

ويكون الوحى على أنواع شتى منه مايكون مكالمة بين العبد وربه كما كلّم الله تعالى موسى تكليما وكلامه بغير صوت ولاحرف بكيفية يعلمها الله سبحانه وتعالى.

يقول سبحانه ﴿وكلّم الله موسى تكليما﴾[7] - يعنى كلاما بلا واسطة فَسُمى بذلك كليم اللهّ.

---

(١) من الآية ١٨٥ البقرة.

(٢) آية ١ سورة القدر.

(٣) من الآية ٣ الدخان.

(٤) من الآية ٥١ الشورى.

(٥) مفردات الراغب ص ٥٥٢.

(٦) مناهل العرفان جـ١ ص٦٣.

(٧) من الآية : ١٦٤ النساء

ومنه مايكون **إلهاما** يقذفه اللهُ تعالى فى قلب مصطفاه على وجه من العلم الضرورى لايستطيع له دفعا ولايجد فيه شكا.

ومنه مايكون **مناما صادقا** يجيء فى تحققه ووقوعه، كما يجيء فلق الصبح فى تبلُّجه[1] وسطوعه.

ومنه ما يكون بوساطة **أمين الوحى جبريل عليه السلام**، وهذا النوع هو أشهرها وأكثرها وهذا هو الوحي الجلى قال تعالى: ﴿**نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين**﴾[2]، [3].

يعنى نزل به أمين السماء جبريل عليه السلام، نزل بالقرآن على قلبك على محمد عليك الصلاة والسلام لتحفظه ولتنذر بآياته وهو بلسان عربى فصيح هو لسان قريش لئلا يَبْقى لهم عذر فيقولوا ما فائدة كلام لانفهمه.

صور نزول الوحي علي الرسول صلي الله عليه وسلم:

ثم إن ملك الوحى يهبط هو الآخر على أساليب شتى، فتارة يظهر للرسول ﷺ فى صورته الملكية وتارة فى صورة إنسان يراه الحاضرون ويستمعون إليه وتارة يهبط على الرسول ﷺ خفية فلايرى ولكن يظهر أثر التغّير والانفعال على صاحب الرسالة فَيَغِطّ غطيط النائم ويغيب غَيْبة كأنها غَشْية أو إغماء وما هى كذلك إن هى إلا استغراق فى لقاء الملك الروحانى وانخلاع عن حالته البشرية العادية فيؤثر ذلك على الجسم فيغط ويَثقل ثقلاً شديدا قد يتَصبَّب منه الجبين عرقا فى اليوم الشديد البرد.

وقد يكون وقع الوحى على الرسول ﷺ **كوقع الجرس إذا صلصل فى أذن** سامعه وذلك أشد أنواعه وربما سمع الحاضرون صوتا عند وجه الرسول ﷺ كأنه دويّ النحل، لكنهم لايفقهون كلاما أما هو فإنه يسمع ويَعى مايوحى إليه ويعلم

(١) البلوج: الإشراق يقال بلج الصبح اى اضاء :مختار الصحاح ص٦٢.

(٢) الأيات ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥ الشعراء.

(٣) مناهل العرفان جـ ١ ص ٦٣ وما بعدها.

علما ضروريا أن هذا هو وحى الله فإذا انجلى عنه الوحى وجد ما أوحى إليه حاضرا فى ذاكرته مُنْتَقشا فى حافظته.

والأدلة على ذلك كثيرة فى الكتاب والسنة ومنه قوله تعالى فى الكتاب العزيز **﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى﴾**[1].

فالرسول ﷺ لايتكلم عن هوى نفسى بل هو لايتكلم إلا عن وحى من الله عز وجل.

كما يقول سبحانه : **﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾**[2] فالله تعالى أوحى إلى رسوله وأنزل عليه الوحى كما أنزله على الرسل السابقين.

ومنها حديث الرسول الكريم ﷺ عن عائشة رضى الله عنها **«أن الحارث بن هشام سأل رسول الله فقال يا رسول الله كيف يأتيك الوحى فقال: أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده على فيفصم عنى وقد وَعَيْتُ عنه ما قال وأحيانا يَتمثل لىَ الملك رجلا فيكلمنى فأعى مايقول قالت عائشة ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه لَيتفَصدُ عرَقا»**[3]

يعنى فيفصل عنه الوحى وإن جبينه ليتفجر عَرقا فكان بهذا يُعانى شدّة من الوحى وفى هذا رفع لدرجاته ﷺ.

وبَعْد هذا الحديث الموجز عن الوحي، نعود لِنُقرر موضوع نزول القرآن جُملة واحدة والذى أشارت إليه الآيات.

(أ) **﴿شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن﴾**.[4]

(ب) **﴿إنا أنزلناه فى ليلة مباركة﴾**[5] وهى ليلة القدر.

---

(١) الآيات ٣، ٤ النجم.

(٢) من الآية ١٦٣ النساء.

(٣) صحيح البخارى جـ ١ ص٢ باب بدء الوحى.

(٤) من الآية ٨٥ البقرة.

(٥) من الآية ٣ الدخان.

(جـ) ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾[1] الليلة ذات القدر والشأن والبركة .

قال ابن كثير : «أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزّة من السماء الدنيا ثم نزل مفصلا بحسب الوقائع والأحداث في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ﷺ»[2] ـ وهي باقي مدة حياة الرسول ﷺ بعد بعثته في سن الأربعين.

ففيما رواه الترمذي عن ابن عباس قال: «أنزل على رسول الله وهو ابن أربعين فأقام بمكة ثلاث عشرة وبالمدينة عشرا وتوفي وهو ابن ثلاث وستين»[3] ـ وهذا هو الصحيح، إن شاء الله تعالي.

ثانيا: نزول القرآن مُنَجّماً:

وهي المرحلة التي منها شع نور الهداية الربانية على العالم فوصلت هدايته سبحانه إلى الخلق ، وكان هذا النزول بوساطة أمين الوحي جبريل عليه السلام يهبط به على قلب الرسول الكريم صلوات ربي وتسليماته عليه، يقول تعالى: ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين﴾[4] ـ ويقول: ﴿تبارك الذي نَزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾[5].

فالقرآن الكريم كلام الله تعالى بألفاظه العربية نزل به جبريل عليه السلام على قلب رسول الله نزولا مُنَجّماً «ويدل التعبير بلفظ التنزيل دون الإنزال على أن المقصود النزول على سبيل التدرّج والتّنجيم فإن علماء اللغة يفُرقُون بين الإنزال والتنزيل؛ فالتنزيل لما نزل مفرقا، والإنزال أعم»[6]ـ يعني أن الإنزال جملة واحدة.

(١) آية ١ القدر.
(٢) تفسير ابن كثير جـ٤ ص ٥٠٩.
(٣) سنن الترمذي جـ٥ ص ٥٥١ باب ٤ حديث رقم ٣٦٢١.
(٤) الآيات من ١٩٣ إلى ١٩٥ سورة الشعراء.
(٥) آية ١ الفرقان.
(٦) مفردات الراغب ص ١٠ بتصرف.

مدة هذا النزول ودليل التنجيم.:

وقد نزل القــرآن منجما فى ثلاث وعــشرين سنة منها ثلاث عــشرة بمكة على الرأى الراجح وعشر بالمدينة.

وجاء التــصريح بنزوله مُفرقا فى قــوله تعالى: **﴿وقرآنا فرقناه [*] لتقرأه على الناس على مكث[**] - ونَزَّلناه تنزيلا﴾**[1] - أى جعلنا نزوله مُفــرقا كى تقرأه على الناس على مــهل وتثبت ونــزلناه تنزيلا بحسب الــوقائع والمصــالح وما تجــرى به المقادير ليكون حفظه أسهل والوقوف على دقائقه أيْسر.

وذكر السيوطى **«أن غــالب القرآن نزل مُفــرقــا ومن أمثلتــه في الســور القصــار «العلق» أول ما نزل منها (اقرأ) إلى قوله تعالى (ما لم يعلم)، «والضحى»: أول ما نزل منها أولها إلى قوله تعالي(فترضى) والقلة القليلة من السور نزلت جَمْعا مثل الفاتحة والإخلاص والكوثر وتبت ولم يكن والنصر والمعوذتان»**[2] - لحكمة الترابط والتماسك فى كل سورة مــن هذه السور بما اشتملت عليه من مســائل فى العقيدة أو أخبار.

الحكم والأسرار في تنجيم القرآن:

الوجه الأول:

إن فى تجــدد الوحى وتكراره ونزول المــلك بهــداياته يملأ قلب الرســول غِبْطَة تشرح صدره وتُرسخ إيمانه وتُقــوى دعائم اليقين فى فؤاده وتشــحذ عَزمَه للمضى قدما في طريق الدعوة وكل هذا يتَجدّد بسبب مــا يشعر به من هذه العناية الإلهية وتعهد مولاه إياه فى كل نوبة من نوبات هذا النزول.

يقول تعالى : **﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليــه القرآن جملة واحدة كذلك**

---

(١) آية ١٠٦ الإسراء.

(٢) الإتقان للسيوطى جـ١ ص ٣٧.

(*) وقراءة فرّقناه بتشديد الراء لابنُ محيصن القراءات الأربع عشر ص ٢٨٧.

(**) قال الراغب: المكث : ثبات مع انتظار ص ٤٩١.

لنثبت به فؤادك﴾[1] لِتَقوى به قلبك.

والآيات الكريمات تأمره ألا يحزن على قومه ﴿فلعلك باخع[*] نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا﴾[2] - فلا تهلك نفسك حزنا وأسى على كفرهم وعنادهم وضلالهم﴿فإنهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾[3] كما يُقرر ذلك العليم الخبير.

وهكذا يُبين الله له سنته فى الأنبياء السابقين الذين كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نَصْر الله ﴿والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون﴾[4] - ولايتأتى ذلك إلا بنزول هذه الأحداث والوقائع مُفرقا على دفَعَات.

الوجه الثاني:

تيسير حفظه وفهمه على النبى ﷺ وأصحابه ومعرفة أحكامه وحكمه ولايخفى أن حفظ ماينزلُ مفرقاً أيسر من حفظ ما يَنْزل جملة وصدق الحق إذ يقول: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾[5] يعنى سَهَّله للفهم والحفظ فهل من مُعْتبر يتذكر ويتدبر.

الوجه الثالث:

تربية الأمة الإسلامية على التأنى والتروى ومسايرة الحوادث والتدرج فى التشريع على مهل.

فما كان الناس ليسلس قيادهم طَفْرة للدين الجديد لولا أن القرآن عالجهم بحكمة وأعطاهم من دوائه الناجع ليأخذ بأيديهم من هاوية الرذيلة وينزعهم من

---

(١) من الآية ٣٢ الفرقان.

(٢) الآية ٦ الكهف..

(٣) من الآية ٣٣ الأنعام.

(٤) من الآية ٢١ يوسف.

(٥) آية ١٧ القمر.

(*) البَخْع : قتل النفس كما فى قوله تعالى : (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) من الآية ٨ فاطر: مفردات الراغب ص ٣٥.

عقائدهم الفاسدة رويدا رويدا أمثال ما كانوا عليه من منكرات وشرب خمر، فالأخذ بأيديهم يستوجب الرفق، ولو أن القرآن طالبهم مرة واحدة بالتحول السريع من عقائدهم وعاداتهم لما استجابوا فتدرج بهم شيئا فشيئا كمثل ما تدرج فى تحريم الخمر.

وهكذا مبدأ التدرج من السهل إلى الصعب ومن الجزئيات إلى الكليات سواء فى التدريس أو التربية وغيرها.

الوجه الرابع:

التمهيد لكمال تحليهم بالعقائد الحقة والعبادات الصحيحة والأخلاق الفاضلة وملاحقة القضايا والبت فى شأنها وقت وقوعها وكانت الأسئلة تُطرح على النبى ﷺ فيسمعها والقرآن يجيب «**من ذلك مارواه جابر بن عبدالله قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع ومعها ابنتاها وقالت يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل معك يوم أحد وقد استولى عمهما على ميراثهما فلم يَدع لهما مالا فقال** رسول الله ﷺ **يقض الله فى ذلك فنزلت ﴿يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾**[1] الآية - فقال الرسول ﷺ **ادع لى المرأة وصاحبها فقال لعمهما أعطهما الثلثين وأعط أمهما الثمن وما بقى فلك**».[2]

وهكذا كان تدرج التشريع فى حل المشكلات أولاً بأول لإصلاح الجماعة. ولسعادتها فى الدنيا والآخرة.

الوجه الخامس:

إثبات أن القرآن مُعجز وذلك لايتأتى إلا بنزوله مُفرَقًا، والقرآن يُطالبهم مادامو قد أنكروه أن يأتوا بمثله ويرد عليهم المولى بقوله جل شأنه: **﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾**[3] - أى سندا وعونا لبعضهم البعض الآخر فإن عجزوا فبعشر سور منه

(١) من الآية ١١ النساء.

(٢) أسباب النزول للسيوطى ص ١٠٧ وصحيح البخارى جـ٦ ص ٥٢ تفسير سورة النساء.

(٣) آية ٨٨ الإسراء.

كما فى قوله سبحانه: ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات﴾[1] ـ يَعْنى موضوعات من صنع البشر فإن عجزوا فليأتوا بسورة واحدة منه كما فى قول البارى جل فى علاه: ﴿وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله﴾.[2]

ولو نزل القرآن جملة واحدة وطالبهم بمُعَارضته لقالوا كيف؟! ولو أنه نزل مفرقاً لَمَا عجزنا عن الإتيان بمثله فقطع الله عليهم معاذيرهم وسجل عليهم عَجزهم أن يأتوا ولو بآية واحدة[3] ﴿قل فلله الحجة البالغة﴾[4] والله غالب على أمره، ولله الأمر من قبل ومن بعد ولكن أكثر الناس لايعلمون.

---

(١) آية ١٣ هود.

(٢) من الآية ٢٣ البقرة.

(٣) انظر فى كل هذا إلى مناهل العرفان جـ١ ص٥٣ إلى ص ٦١ بتصرف وتلخيص.

(٤) من الآية ١٤٩ الأنعام.

المبحث الرابع
أول مانزل من القرآن الكريم وآخر مانزل منه وفوائد الإلمام بذلك

ولايعرف ذلك إلا عن طريق النقل الصحيح وللعلماء في ذلك أقوال نختار الأرجح منها وبالله التوفيق.

نتناول أولا: فوائد الإلمام بأول ما نزل وآخر مانزل:

١ ـ «أنه يُعين على تمييز الناسخ من المنسوخ فيما إذا وردت آيتان أو آيات على موضوع واحد وكان الحكم فى إحدى هذه الآيات يُغاير الحكم فى الأخرى ـ فالمعروف أن الآية المتأخرة تنسخ المتقدمة.

٢ ـ كذلك يفيد معرفة تاريخ التشريع الإسلامى ومراقبة سيْره التدريجى والوصول من وراء ذلك إلى حكمة الإسلام وسياسته الرشيدة فى أخذه الناس بالهوادة والرفق والبعد بهم عن الطفرة والعنف والتدرج بهم شيئاً فشيئاً فى التحريم حتى لا تنفر النفوس.

٣ ـ إظهار مدى العناية التى أحيط بها القرآن الكريم حتى عرف فيه أول مانزل وآخر مانزل والمكى والمدنى وهذا مظهر من مظاهر الثقة به ودليل على سلامته من التغيير والتبديل»[(١)] ـ ﴿**لاتبديل لكلمات الله**﴾[(٢)] ـ وصدق الحق إذ يقول ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾[(٣)] ـ حافظون له إلى يوم القيامة من أى تبديل أو تحريف أو تغيير.

---

(١) مناهل العرفان جـ١ ص ٩٢.

(٢) من الآية ٦٤ يونس.

(٣) من الآية ٩ الحجر.

ثانيا : أول مانزل من القرآن الكريم:

ومقصود هذا هو أول ما نزل به جبريل عليه السلام على الرسول الكريم ﷺ.

١ ـ قال السيوطى : «اختلف فى أول مانزل من القرآن الكريم على الإطلاق على أقوال أحدها وهو الصحيح قوله جل شأنه ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم﴾)[١]،[٢] .

وهذا هو أصح الآراء ودليل ذلك ما رواه البخارى عن عائشة رضى الله عنها: «أول ما بُدِئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ـ يعنى ضياؤه ـ ثم حُبِّب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه وهو التعبد الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء فجاءه الملك فقال اقرأ قال ما أنا بقارئ قال فأخذنى فغطنى [*] حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال اقرأ قلت ما أنا بقارئ فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارئ فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى فقال اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم فرجع بها رسول الله ﷺ يرْجف فؤاده ..» [٣] الحديث.

٢ ـ وعن ابن عباس أنه قال «أول سورة نزلت من القرآن بمكة اقرأ باسم ربك الذى خلق»[٤] وهذا تأكيد لكون بداية هذه السورة هى أول مانزل من الوحى ويدعم هذا الرأى أيضا الإبياري[٥] .

---

(١) الإتقان لسيوطى جـ١ ص ٢٣.

(٢) الآيات من ١ إلى ٥ من سورة العلق.

(٣) صحيح البخارى جـ١ ص ٣ باب بدء الوحى.

(٤) الدر المنثور للسيوطى جـ٦ ص ٣٦٨ فيما أخرجه ابن مردويه من طرق عن ابن عباس.

(٥) تاريخ القرآن للإبيارى ص١٨ و ص٥٣.

(*) غط غطيطا: تردد نفسه صاعدا إلى حلقة حتى يسمعه من حوله : المصباح المنير جـ٢ ص ٦٨٩.

وذكر الواحدى فى أسباب النزول: «**وهى من أول تنزيل القرآن**»[1] يعنى أن الآيات الأول من سورة العلق هى أول نزول الوحى على الرسول الكريم ﷺ .

٣ ـ **وهذا الرأى بأول ما نزل له أرجحيته من ناحية العقل فبداية العلم الإلهى** هو القراءة التى هى مفتاح الإدراك والفهم لتبليغ رسالة السماء للهداية .

٤ ـ **كما أن الروايات الأخرى التى تلمح بأن أول مانزل هو غيرها فذلك فى نظرنا ليس على الإطلاق بل على سبيل التجوز كالقول القائل (يا أيها المدثر) أنها** أول مانزل على اعتباربداية الأمر بتبليغ الدعوة، ومن ناحية أخرى على اعتبار أول ما نزل من سور كاملة كرأى سورة الفاتحة، والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم بالصواب .

ثالثا: آخر مانزل من القرآن الكريم:

اختلف العلماء فى تعيين آخر مانزل من القرآن على الإطلاق واستندوا إلى آثار ليس فيها حديث مرفوع إلى النبى ﷺ فكان هذا من دواعى الاشتباه وكثرة الخلاف .

والراجح أن آخر مانزل قول الله تعالى فى سورة البقرة ﴿**واتقوا يوما تُرجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ماكسبت وهم لايظلمون**﴾[2] .

أى احذروا يوما سترجعون فيه إلى ربكم، ثم توفى كل نفس حسابها وأنتم لاتظلمون، وفيها تذكير للعباد بذلك اليوم العصيب الشديد .

وفيما ذكره السيوطى: (**وما ورد من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: آخر شىء نزل من القرآن واتقوا يوما ترجعون فيه**) الآية.

وعاش النبى ﷺ بعد نزول هذه الآية سبع ليال ثم مات ليلة الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول»[3].

---

(١) أسباب النزول للواحدى ص٣٣٠ .

(٢) الآية ٢٨١ البقرة.

(٣) الإتقان للسيوطى جـ ص٢٧ بتصرف وتفسير ابن كثير ص٣٣٣.

وهذا الرأى هو الصحيح لما فيه من تحديد الوقت وثقة راويه، وسند ذلك ما أشار إليه البخارى فى صحيحه.

«حدثنا قبيصة بن عقبة حدثنا سفيان عن عاصم عن الشعبى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال آخر آية نزلت على النبى ﷺ آية الربا»[1].

والآية التى نحن بصددها **﴿واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله﴾** هى خاتمة لسابقتها الخاصة بالربا وهى نعم الختام لآيات الأحكام والتكاليف التى كلف الله بها المؤمنين.

ويؤيد ذلك ماذكره الإبيارى : «وكما كان ضبط الآيات بفواصلها توقيفا كذلك كان وضعها فى مواضعها توقيفا ودليل ذلك هذه الآية **﴿واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله﴾**.

كانت آخر مانزل، فوضعها النبى ﷺ عن وحى من ربه بين آيتى الربا والدين من سورة البقرة وهكذا كان الأمر فى سائر الآيات»[2].

وهذا التوقيف لامجال للاجتهاد فيه ولا للخلاف كذلك.

وأما ما ذكره الزرقانى: «أن آخر مانزل هو سورة **﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾** رواه مسلم عن ابن عباس»[3] ـ ونص ماجاء بصحيح مسلم: **«قال ابن عباس .. آخر سورة نزلت من القرآن، نزلت جميعا . إذا جاء نصر الله والفتح»**[4].

ولكننا نستطيع أن نحمل هذا الخبر على أن هذه السورة آخر مانزل من السور مُشْعرا بوفاة النبى ﷺ، ويؤيده ماروى من أنه ﷺ حين نزلت قال: **«نُعِيَتْ إلىّ نَفْسى»**[5] ـ يعنى إيذانا بقرب رحيله ﷺ ليلحق بالرفيق الأعلى، وما رؤى بعدها إلا مُسَبِّحا مُسْتغفرا.

---

(١) صحيح البخارى جـ٦ ص٤٠ أبواب التفسير رقم ٨.

(٢) تاريخ القرآن للإبيارى ص٦٢.

(٣) مناهل العرفان للزرقانى جـ١ ص١٠٠ وسورة النصر رقم ١١٠ فى المصحف.

(٤) صحيح مسلم جـ٤ ص٢٣١٨ ـ ٥٤ ـ كتاب التفسير ـ ٢١ ـ (٣٠٢٤).

(٥) مسند الإمام احمد بن حنبل جـ١ ص٢١٧ عن ابن عباس رضى الله عنه.

رابعا: مثال من أوائل وأواخر ما نزل خاص ببعض الأحكام الشرعية:

لنلحظ فيه سير التشريع الإسلامى وتدرجه الحكيم.

مثال ذلك مانزل فى الخمر: «فعن عبدالله بن عمر قال: نزل فى الخمر ثلاث آيات فأول شىء نزل ﴿**يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما**﴾[1] الآية - فقيل حُرِّمت الخمر فقالوا يا رسول الله دعنا ننتفع بها كما قال الله فسكت عنهم ثم نزلت هذه الآية ﴿**لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون**﴾[2] فقيل حُرمت الخمر فقالوا يا رسول الله لانشربها قرب الصلاة فسكت عنهم ثم نزلت ﴿**يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون**﴾[3] - يعنى لاتقربوها - فقال رسول الله ﷺ حرمت الخمر»[4].

وفيما ذكره البخارى:

عن ابن عمر قال سمعت عمر رضى الله عنه على منبر النبى ﷺ يقول: أما بعد، أيها الناس: إنه نزل تحريم الخمر وهى من خمسة من العنب، والتمر، والعسل، والحنطة، والشعير، والخمر ما خامر العَقْلَ.»[5]

وهذا آخر بيان فى تحريم الخمر نهائيا ووضح مصادرها وفى قوله خامر العقل يعنى ضَيَّعه بالسكر، وما أسكر معظمه فملء الكف، منه حرام، وكل مسكر خمر وكل خمر حرام.

وهكذا نرى التدرج فى التشريع ليتناسب مع البيئة التى كانت الخمور هى عصب حياتها وتعاطيها والاتجار فيها، وهذا من تيسير الشارع الإسلامى الحنيف.

---

(١) من الآية ٢٧٩ البقرة.

(٢) من الآية ٤٣ النساء.

(٣) آية ٩٠ المائدة.

(٤) تفسير الدر المنثور للسيوطى جـ٢ ص ٣١٤.

(٥) صحح البخارى جـ٦ أبواب التفسير قوله تعالى: إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ص٦٧.

المبحث الخامس
فى أسباب النزول
وقاعدة العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب

من القرآن الكريم مانزل من الله ابتداء غير مرتبط بسبب من الأسباب الخاصة إنما هو لمحض هداية الخلق إلى الحق وإلى الطريق المستقيم كآيات الترغيب والترهيب وعقائد الإيمان وواجبات الإسلام وشرائع الله فى حياة الفرد والجماعة والتى تهدى الناس للتى هى أقوم وهذا أكثر القرآن.

ونوع آخر نزل مرتبطا بسبب من الأسباب الخاصة كالإجابة عن سؤال أو استفتاء كقوله تعالى: ﴿يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول﴾[1] والأنفال هى غنائم الحرب.

وقوله سبحانه: ﴿ويستفتونك (*) فى النساء قل الله يُفتيكم فيهن﴾[2] يعنى يطلبون الفُتيا، أو كان مرتبطا بوقائع مُعينة يعنى بأحداث حدثت.

فما معنى سبب النزول؟ سبب نزول الآية أو الآيات:

والجواب هو «ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه أو مبينة لحكمه أيام وقوعه»[3].

فقد تحدث حادثة أيام نزول القرآن الكريم أو يُوجّه سؤال إلى الرسول ﷺ فتنَزل الآية أو الآيات مُبينة وموضحة لوقائع الحادثة أو مُجيبة عن السؤال أو الأسئلة.

(١) من الآية ١ الأنفال.

(٢) من الآية ١٢٧ النساء.

(٣) مناهل العرفان جـ١ ص١٠٦.

(*) استفتاء فى مسألة فأفتاه والاسم الفتيا والفتوى وتفاتوا إليه: ارتفعوا إليه فى الفتيا: مختار الصحاح ص٤٩١.

ويستفتونك يعنى يطلبون الفتيا وخاصة فى الأمور الفقهية.

١ ـ ومن صور نزول القرآن الكريم بشأن حادثة مُعينة ما رواه البخارى عن ابن عباس: «قال لما نزلت ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾[١] يعنى أهلك وقرابتك ـ خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا فهتف يا صباحاه فقالوا من هذا فاجتمعوا إليه فقال أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقىّ؟ قالوا ما جرّبنا عليك كذبا: قال فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد قال أبو لهب تبّا لك ما جمعتنا إلا لهذا ثم قام فنزلت ﴿تبت يدا أبى لهب وتب﴾[٢] ـ يعنى دعاء عليه بالخسران ـ بمعنى استمر فى خسرانه[٣] ـ وضلاله البعيد ولم يرد الله له الهداية.

٢ ـ وقد يكون من أسباب النزول ما ارتكب من حادث فاحش كالذى أشار إليه الواحدى «قال حدثنا عطاء عن أبى عبدالرحمن قال صَنَع عبدالرحمن بن عوف طعاما ودعا أناسا من أصحاب رسول الله ﷺ فطعموا وشربوا وحضرت صلاة المغرب فتقدم بعض القوم فصلى بهم المغرب فقرأ قل يا أيها الكافرون فلم يُقِمْها ـ يعنى أنه قال أعبد ماتعبدون بحذف لا من لا أعبد ـ فأنزل الله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون﴾[٤]»[٥] حتى تفيقوا من السكر.

لأن الصلاة لها قداستها فلايليق بالعاقل أن يقف أمام ربه وهو فى نشوة السكر وضياع العقل فيتخبط فى قراءته.

٣ ـ وقد يكون من أسباب النزول إجابة عن سؤال مرفوع إلى النبى ﷺ يتصل بأمر مَضَى نحو قوله سبحانه: ﴿ويسألونك عن ذى القرنين، قل سأتلو عليكم منه ذكرا﴾[٦] يعنى سيقص جانبا من قصته ـ أو يتصل بحاضر نحو قوله جل شأنه

---

(١) آية ٢١٤ الشعراء.

(٢) صحيح البخارى جـ٦ أبواب التفسير ص٢٢١ وأسباب النزول للواحدى ص٣٤٤.

(٣) مفردات الراغب ص ٦٩.

(٤) آية ٤٣ النساء.

(٥) أسباب النزول للواحدى ص١١٣.

(٦) آية ٨٣ الكهف .

﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾[1] فهم يسألون عن حقيقة الروح - أو يتصل بالمستقبل نحو قوله تعالى: ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها﴾[2] يعنى متى وقوعها ؟

وقوله كذلك : ﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا﴾[3] يعنى يُسوِّيها.

ومع شرح تعريف سبب النزول بأنه ما نزلت الآية أو الآيات مُتحدثة عنه أو مبينة لحكمه أيام وقوعه:

فمعنى أيام وقوعه يعنى الظروف التى ينزل القرآن فيها متحدثا عن ذلك السبب سواء أوقع هذا النزول عقب سببه مباشرة أم تأخر عنه مدة لحكمة من الحكم، كما حدث ذلك حين سألت قريش رسول الله ﷺ عن الروح وأصحاب الكهف وذى القرنين فقال ﷺ غدا أخبركم ولم يَستثن أى لم يقل إلا أن يشاء الله فأبطأ عليه الوحى خمسة عشر يوما على خلاف فى ذلك ثم نزلت إجابات تلك الأسئلة وفى طيها يرشد تعالى رسوله إلى أدب الاستثناء بالمشيئة ﴿ولا تقولن لشيء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله﴾[4]،[5] بأن تقول إن شاء الله تعالى - وذلك فى كل الأمور.

كيف يمكن معرفة سبب النزول؟

والعلماء يعتمدون فى معرفة سب النزول على صحة الرواية عن رسول الله ﷺ أو عن الصحابة ولامجال فيه للاجتهاد، ومن هنا كان الصحابة والتابعون هم المصدر الوحيد لمعرفة أسباب النزول.

وقد يكون العلم بالسبب عن طريق الجزم أو عن طريق الظن.

قال السيوطى: «ومعرفة سبب النزول أمر يحصل للصحابة بقرائن تختلف

---

(١) آية ٨٥ الإسراء.

(٢) آية ٤٢ النازعات.

(٣) آية ١٠٥ طه.

(٤) آية ٢٣ الكهف

(٥) انظر فى كل ذلك مناهل العرفان جـ١ ص١٠٨.

بالقضايا وربما لم يجزم بعضهم فقال أحسب هذه الآية نزلت فى كذا»[1]، فهو يرجح أنها نزلت فى خصوص كذا.

ويقول الواحدى: **«ولا يحل القول فى أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التّنزيل ووقفوا على الأسباب»**[2] - يعنى أنهم تناقلوها جيلا عن جيل وقبيلا إثر قبيل من أولئكم الأمناء على دين الله وكتابه تبارك وتعالى.

ويقول السيوطى : **«إذا أخبر** الصحابى الذى شهد الوحى والتنزيل عن آية من القرآن أنها نزلت فى كذا فإنه حديثٌ مسنَد.

وأيضا: فإن قول التابعى إذا كان صريحا فى سبب النزول فإنه يقبل ويكون مرسلا إذا صح المسند إليه - يعنى المروىٍ عنه - وكان من أئمة التفسير الذين أخذوا عن الصحابة كمجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير واعتضد بمرسل آخر»[3] - يعنى تَقَوَّى بمرسلٍ آخر يدور فى نفس الفلك.

فوائد معرفة أُسباب النزول:

١ - معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم وهذا يُفيد المؤمن وغير المؤمن فأما المؤمن فيزداد يقينا على يقين لما يُدرك من مراعاة الشارع للمصلحة العامة فى تشريعه وفى تدرجه التشريعى وغير المؤمن ربما يَرِقُّ قلبه للإيمان إن كان منصفا بملاحظة أن التشريع الإسلامى يقوم على رعاية مصالح الناس[4] وعلى حرية العقيدة بدون إكراه ولا إجبار.

وبما يذكره الزرقانى من فوائد معرفة أسباب النزول:

٢ - **«الاستعانة على فهم الآية فهما صحيحا ودفع الإشكال عنها»**[5] ذلك لأنه

(١) الإتقان للسيوطى جـ١ ص٣١.

(٢) أسباب النزول للواحدى ص٣.

(٣) الإتقان للسيوطى جـ١ ص ٣١.

(٤) البرهان للزركشى جـ١ ص٢٢ ومناهل العرفان جـ١ ص١٠٩ بتصرف.

(٥) مناهل العرفان جـ١ ص١٠٩.

لايمكن الحكم الصحيح على الآية وبيان المراد منهـا إلا إذا وقف المفسر على سبب نزولها الذى يلقى مـزيد أضواء عليها ومعـرفة المقصود منها، وكـيفية تطبيـقها. وإبعاد أى تصور يؤدى إلى التناقض مع آية أخرى.

ذكر الزركشى : «**قال القشيرى: بيان سـبب النزول طريق قوى فى فهم معانى الكتاب العزيز وهو أمر نحصل للصحـابة بقرائن تَحْتَف بالقضايا ـ يعنى تتعلق بها ـ وذلك ليتسنى لنا القياس ورد النظير إلى نظيره**»[1] والشَّبيه إلى شَبيهه.

والأمثلة على ذلك شـتى قال تعالي: ﴿**ولله المشرق والمغرب فـأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم**﴾[2] ـ فاللفظ يدل بظاهره عـلى أن للإنسان أن يصلى إلى أية جهة شاء، ولكن إذا علم «**أن الآية نازلة فى نافلة السفر خـاصة أو فيمن صلى باجتهـاده ثم بان له خطؤه تبين له أن المراد التخفيف على خصـوص المسافر فى صلاة النافلة أو علـى المجتهد فى القـبلة إذا صَلى وتبين له خطؤه**»[3] ـ وذلك من قبيل التخفيف على المؤمنين والتيسير عليهم.

وآية تولية الوجوه شطر المسجد الحرام فى الصلوات المكتوبات على إطلاقها فى وجوب التوجه فى الصلوات المفروضات تجاه المسجد الحرام.

ومن هذا القبـيل كذلك مـارواه كل من البخـارى والواحدى[4] فى خصوص سبب نزول قـوله سبحـانه: ﴿**إن الصفا والمروة مـن شعائر الله فـمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما**﴾[5].

وعمدة القـول فى هذه المسألة ما وقع فى نفس عروة بن الزبـير أن السعى بين الصفا والمروة غير مفـروض أخذا من قوله سبحانه ﴿**إن الصفا والمروة مـن شعائر**

---

(١) البرهان جـ١ ص ٢٢.

(٢) الآية ١١٥ البقرة.

(٣) أسباب النزول للواحدى ص ٢٥.

(٤) صحيح البخارى جـ٦ ص ٢٨ أبواب التفسير عن هشام بن عروة عن أبيه قال قلت لعائشة أرأيت قول الله تعالى إن الصفا والمروة من شعائر الله، وأسباب النزول للواحدى ص٣١.

(٥) من الآية ١٥٨ البقرة.

الله فمن حج البيت أو اعتمر فلاجناح عليه أن يطوف بهما﴾ وقوله لاجناح بمعنى لاحرج عليه وقد فهم من رفع الجناح سلب الفريضة، ومن هنا بادر إلى سؤال عائشة وهى خالته فأزالت عنه هذا اللبس وقررت له إنه قد استقر فى أذهان المسلمين الحرج والتأثم لأن السعى بين الصفا والمروة كان معروفا فى الجاهلية لكن الله قال لهم لاحرج عليكم فى إتمام هذا النسك وبذلك زال الحرج عن المسلمين - ومما زاد فى حرجهم أن المشركين كانوا يَتَبَرّكون بأصنام لهم نصبوها عند الصفا والمروة وقد أزالوها وحطموها فانتفى الحرج عند ذاك وقد طاف الرسول ﷺ بالصفا والمروة فلاحق لأحد فى الامتناع عن الطواف بهما بعد ذلك، فالمصطفى ﷺ يأمرنا باتباعه فى مناسك الحج بقوله وفعله فقال : (لتأخذوا مناسككم)[١] لنتأسى به ﷺ فى شعائر الحج والعمرة كما كان يفعلها.

وبمعرفة سبب النزول ينتفى القول بعدم الفريضة، بل هو أحد أركان الحج الأساسية

٣ - ومن فوائد معرفة سبب النزول تخصيص الحكم به عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب[٢].

ولكن هذا الرأى فيه تضييق لمعانى الذكر الحكيم الذى جاء مناسبا لكل زمان ومكان.

وعلى سبيل المثال فى هذه القضية آيات الظهار مُفتَتَح سورة المجادلة سببها أن أوس بن الصامت ظاهر من زوجته خولة بنت ثعلبة وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله ﷺ وهى تقول يا رسول الله أبْلى شبابى ونثرت له بطنى حتى إذا كبر سنى وانقطع ولدى ظاهر منى اللهم إنى أشكو إليك فما برحت حتى نزل جبريل عليه السلام بهذه الآيات.

﴿قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله ...﴾[٣]

(١) صحيح مسلم جـ٢ ص ٩٤٣ - ١٥ - كتاب الحج - ٥١ - باب استحباب رمى جمرة العقبة يوم النحر راكبا ٣١ - (١٢٩٧) عن جابر بن عبدالله.

(٢) البرهان للزركشى جـ١ ص٢٢.

(٣) من الآية (١) المجادلة.

حـقا لقـد سمع الله قـول المرأة التى تراجـعك؛ وتحاورك فى شـأن زوجهـا. والحكم الذى تضمنته هذه الآيات خاص بهما وحدهما على رأى العبرة بخصوص السبب أمـا غيره فـيعلم بدليل آخـر قياسـا أو سواه، وبدَهى أنه لايمكن معـرفة المقصـود بهذا الحكم ولا القياس عليـه إلا إذا علم سبب النزول[1] ـ وبهذا يكون الاستنتاج واضحا ومَبْنِيًّا على أساس.

٤ ـ ومن فوائد معرفة سبب النزول **«أنه قد يكون اللفظ عـاما ويرد دليل على تخصيصه، فمـعرفـة السـبب تقصـر التخـصيص على مـاعدا صـورته ولايصح إخراجها»**[2] ـ لأن دخول صورة السبب فى اللفظ العام **قطعى** فـلايجوز إخراجها بالاجتهـاد لأنه ظنى وهو رأى الجمهور فلو لـم يعرف سـبب النزول لجاز أن يفهم أنه مما خرج بالتخصيص مع أنه لايجوز إخراجه قطعا للإجماع المذكور.

ويمثل لهذا بقوله تعالى **﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لُعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون يومئـذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾**[3] أى الحق البّين[4] الواضح ـ فإن هذه الآية نـزلت فى عائشة خـاصة أو فيـها وفى سائر أزواج النبى ﷺ كما قرر بذلك ابن عباس ولم يجعل الله لمن فعل ذلك توبة وجـعل لمن رمى امـرأة من المؤمنات من غـيـر أزواج النبى ﷺ التـوبة ثم قـرأ: **﴿والذين يرمون المحصنات، إلى قوله: إلا الذين تابوا﴾**[5].

وعلى هذا فإن قبـول توبة القاذف وإن كان مخـصصا لعمـوم قوله تعالى: إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات، لايتناول بالتخصيص من قذف عائشة أو قذف سائر أزواج النبى ﷺ فإن هذا لاتـوبة له لأن دخول صورة سبب النزول فى اللفظ الـعـام للآية قطعى الدلالة يـعنى داخل فى صلب المعـنى والمقـصـود الأصلى.

---

(١) أسباب النزول للسيوطى جـ١ ص٤ ٣٠.

(٢) البرهان للزركشى جـ١ ص ٢٢.

(٣) الآيات ٢٣ ـ ٢٥ النور.

(٤) مفردات الراغب ص ٦٧.

(٥) تفسير ابن كثير جـ٣ ص ٢٦٤.

٥ ـ ومن فوائد معرفة أسباب النزول كذلك: بيان حكم جديد ومثاله ماثبت من أن النية مدار الثواب، وقد نزل فى ذلك قوله تعالى: **﴿ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله، وكان الله غفوراً رحيما﴾**(١).

فقد ذكر القرطبى «أنها نزلت فى جندب بن سمرة الذى قال عنه عكرمة مولى ابن عباس كان من المستضعفين بمكة وكان مريضا فلما سمع ما أنزل الله فى الهجرة قال أخرجونى فَهُيِّئَ له فراش ووُضِعَ عليه وخرج فمات فى الطريق بالتنعيم قرب مكة فنزلت الآية»(٢).

وصدق الرسول ﷺ حيث يقول: إنما الأعمال بالنية وإنما لامرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»(٣).

فثواب الأعمال على هذا بالنيات وبما يضمره الإنسان فى قلبه هل يقصد وجه الله بحركاته وسكناته أم يقصد جمع الدنيا والاستكثار منها والتفاخر بها فهذا فى سبيل الشيطان.

المراد من قول العلماء العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب:

نزلت بعض آيات القرآن الكريم لأسباب وقعت ولكن يجب ألا تكون هذه الآيات مقصورة على من نزلت فيهم ثم تبقى مُعَطلة الحكم بعد ذلك، وإنما يُؤخذ اللفظ على عمومه ويشمل الحكم كل الأحداث المشابهة لمن نزلت فى شأنهم هذه الآيات الكريمات.

ومن الأمثلة على ذلك قصة السيدة عائشة رضى الله عنها فى حادث الإفك واتهامها زُورا وبهتانا، ويجب أن تكون دَرْسا لكل من يجترئ على الأعراض

---

(١) من الآية ١٠٠ النساء.

(٢) تفسير القرطبى جـ٥ ص٣٤٩.

(٣) صحيح مسلم جـ٣ ص ١٥١٦ - ٣٣ كتاب الإمارة، عن عمر بن الخطاب.

وينال من نساء الأمة الطاهرات يقول الحق سبحانه: ﴿**إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة**﴾[1].

فالشرع الإسلامى الحنيف يريد مجتمع الطهارة والنقاء والصفاء والذى يسود فيه الأمن والأمان والعدل والوئام.

وهذا هو مفهوم قولهم المراد عموم اللفظ وليس خصوص السبب، لينسحب منطوق آيات القرآن على كل ما يتجدد من أحداث إلى أن تقوم الساعة.

ويؤكد ابن تيمية هذا المفهوم بقوله: «**ولم يقل أحد إن عمومات الكتاب والسنة تختص بشخص معين وإنما غاية مايقال: إنها تختص بنوع ذلك الشخص، فتعمّ ما يشبهه، وهذا الحكم عام فى كل من يندرج تحت لفظ الآية حتى لو كان اللفظ أمرا أو نهيا بحسب الحكم**»[2].

وبهذا يحقق الشرع الإسلامى عموم التطبيق والتيسير على الناس.

كما أن كثيرا من روايات أسباب النزول ظنية وليست قطعية ومن هنا قدّم العلماء دلالة اللفظ على دلالة سبب النزول، وقد تكون دلالة اللفظ قطعية وقد تكون ظنية ولكن القرائن والسياق يُحدّدان المراد.

هل يكون المنزل واحدا والسبب متعدّدا؟

نعم فقد تتعدد أسباب نزول النص وليس هناك ما يَمْنع من تعدد الحوادث ونزول الآيات بسببها.

ومثال ذلك ما ذكره المفسرون فى قوله تعالى: ﴿**ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية** - إلى آخر قوله سبحانه - **فما لهؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثا**﴾[3] - فهم لايفهمون.

---

(١) من الآية ١٩ النور.

(٢) مقدمة فى أصول التفسير لابن تيمية ص ١٢.

(٣) الآيات ٧٧, ٧٨ النساء.

قالوا فى سبب نزولها:

١ ـ ذكر ابن كثير «قال مجاهد نزلت فى اليهود رواه ابن جرير» [(١)] ـ والله ينهى المسلمين أن يفعلوا مثل مافعلوا، وهذا رأى مرجوح فهو من طريق الاحتمال والظن وليس الجزم وما قاله غيرهم أنه قيل فى المنافقين وضعاف المسلمين فهو أرجح لأن سياق الآيات فى الحديث عن المنافقين ولأنه قال فى ختامها (فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا).

٢ ـ قال الفخر الرازى نزلت فى المنافقين وضعاف الإيمان[(٢)] ولايجوز لنا أن نقصرهم على هذه الطائفة فقط.

٣ ـ قال الواحدى: «نزلت فى جماعة المؤمنين أمثال : عبدالرحمن بن عوف وأصحابه، وبه قال كثير من المفسرين منهم عكرمة، قالوا: أتى المسلمون النبى ﷺ وقالوا كُنّا فى عز ونحن مشركون ولما أسْلمنا صِرْنا فى ذِلّة فاذن لنا يا رسول الله فى قتالهم فنهاهم النبى ﷺ عن القتال، ولما هاجر إلى المدينة وأمره الله بالقتال فنزلت الآيات»[(٣)] فاستَثْقَلُوا القتال.

وللجمع بين هذه الآراء فإنه يحتمل أن عبدالرحمن بن عوف ومن على شاكلته رأوا ترك القتال ذُلا ولايلزم أن يكونوا قد كرهوا القتال لأنهم من الصادقين وكان فى المسلمين بعض من المنافقين ومرَضى القلوب لأنه قال إذا فريق منهم.

وفى ذلك المثال ما يفيد تعدّد أسباب النزول، وقد يكون سبب النزول ظنيا يعنى أنه قد يتطرق إليه الاحتمال بأن يُقال إن من أسباب نزول الآية كذا وكذا، والله أعلم بالصواب.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٥٢٦.

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازى جـ١٠ ص١٨٥.

(١) أسباب النزول للواحدى ص١٢٣، ص١٢٤

وهل يتعدد المنزل والسبب واحد؟

والجواب: نعم فقد تحدث قضية واحـدة تنزل من أجلها آيات متفرقة فى سور مختلفة لتأكيد الحكم وإرشاد الخلق إلى طريق الحق.

ومن ذلك وصايا الربّ جل جلاله بالإحسان إلى الوالدين وعـدم طاعتهما فى خصوص الشرك والتى جاءت فى سور العنكبوت ولقمان والأحقاف؛

ففى العنكبوت يقول سبحانه:

﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك (*) لتشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعلمون﴾[1] وَصًّى بطاعة الوالدين فيما عدا الشرك.

وفى لقمان يقول الله تعالى:

﴿ووصينا الإنـسان بوالديه حملته أمه وهنا عـلى وهن وفصاله فـى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلىّ المصير، وإن جاهداك(*) على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما ...﴾[2] وَصّى بالإحسان إليهمـا كذلك نظرا لمّا يُصيب الأم من ضعف حمل وولادة ،وعدم الطاعة فى الشرك.

فقد ورد فى هذا الصدد خـبر فيما روى «عن عثمـان النهدى أن سعد بن أبى وقـاص قال: كنـت برّا بأمي، فلمـا أسلمت قالـت يا سعـد مـاهذا الدين الذى أحْدثت؟ لتـدعن دينك هذا أو لا آكل ولا أشـرب حتى أمـوت فتُعَيَّرَ بى، فقـال لاتفعلى يا أمّه فإنى لا أدع دينى، قال فمكثَت يومـا وليلة لا تأكل فأصبحت وقد جهدت، فقلـت والله لوكانت لك ألف نفس فخرجت نفسا نفـسا ما تركت دينى هذا لشيىء فلما رأت ذلك أكلت وشربت»[3].

---

(١) آية ٨ العنكبوت.

(٢) من الآية ١٤ ، ١٥ سورة لقمان.

(٣) أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير جـ٢ ص٣٦٨.

(*) الجَهْد والجُهد بفتح الجيم وضمها: الطاقة والمشقة : مفردات الراغب ص ٩٩.

وهكذا تكون قوة الإيمان واليقين التى تُزَلْزِلُ الجبال لاتقف أمامها أية عاصفة من العواصف الهوج كائنة ما كانت فلنا فى ذلكم الرعيل الأول الأسوة الحسنة فى عمق اليقين بالدين الحق مهما كانت العقبات حتى ولو من أولى الأرحام فلا نُرضيهم بسخط الله سبحانه فلاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق.

وكانت هذه الوصايا بالإحسان إلى الوالدين وعدم طاعتهما فى خصوص الشرك مصحوبة فى كل منها بزاوية من زوايا الحِكَم الإلهية فى النصح والإرشاد والتوجيه لصالح الأسرة والجماعة على حد سواء ولسعادة الجميع فى الدنيا والآخرة.

فى بيان جمع القرآن ومن حفظه من الصحابة

جمع القرآن على عهد أبى بكر:

عن زيد بن ثابت قال أرسـل إلى أبو بكر عقب مقـتل أهل اليمامـة - فإذا عمر بن الخطاب عنده، فقال أبو بكر إن عمر أتانى فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامـة بِقُراء القرآن. وإنى أخشى أن يستـحر القتل بالمواطن - فيذهب كـثير من القرآن؛ وإنى أرى أن تأمر بجمـع القرآن. قلت لعمر: كيف نفعل شيـئًا لم يفعله رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: والله إن هذا خيـر. فلم يزل عمر يراجعنى حتر شرح الله صدرى لذلك.

قال زيد بن ثابت وقال أبو بكر إنك رجل شاب عاقل لا أتهمك، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ، فـتتبع القـرآن واجمعه، قـال زيد فوالله لو كلفنى نقل جبل من الجبـال ما كان بأثقل علَّى مما أمرنى به من جـمع القرآن، قلت كيف نفعـل شيئًـا لم يفعله رسـول الله ﷺ؟ فقـال: هو والله خيـر، فلم يزل أبو بكر يراجعنى حـتى شرح الله صدرى للذى شـرح له صدر أبى بكر وعمـر، فتتـبعت القـرآن أجمـعه من العـسـب «جـريد النخـل إذا نحـى عنه خـوصه - واللّخـاف «حجـارة بيـض عـريضة رقاق واحدها لَخْـفة» - وصدور الرجال، حـتى وجدت آخر التوبة «لقد جـاءكم» مع أبى خزيمة الأنصارى الذى جعل النبى ﷺ شهادته بشهادة رجلين، لم أجـدها مع أحد غيره فألحـقتها فى سورتـها. فكانت الصحف

عند أبى بكر رضى الله عنـه حتى توفـاه الله، ثم عند عـمر حـتى قـبض ثم عند حفصة بنت عمر رضى الله عنه.

وثبت أن القرآن مـجموعه محـفوظ كله فى صدور الرجال أيام حـياة النبى ﷺ مؤلفًا على هذا التأليف.

وإنما ترك جمعه فى مصحف واحد لأن النسخ كان يرد على بعض، ثم وفق لجمعه الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم.

نسخ القرآن فى المصاحف

واعلم أنه قد اشتهر أن عثمان رضى الله عنه هو أول من جمع المصاحف، وليس كذلك بل أول من جمعها فى مصحف واحد الصديق، والنسخ فى المصاحف فى زمن عثمان رضى الله عنه.

أرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلى إلينا الصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها إليه فأمر زيد بن ثابت وغيره فنسخوها ثم نردها إليك، فأرسلت بها إليه فأمر زيد بن ثابت وغيره فنسخوها فى المصاحف، قال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء فى القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل فى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق.

عدد مصاحف عثمان

أربع نسخ بعث إلى كل ناحية واحداً الكوفة البصرة الشام وترك واحداً عنده والله أعلم.

فى بيان من جمع القرآن حفظاً

من الصحابة على عهد رسول الله ﷺ

عن قتادة قال سألت أنس بن مالك من جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ قال أربعة كلهم من الأنصار، أبى بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد. وهناك روايات أخرى.

الرد على ما يثار فى قضايا أسباب النزول

ينزل الله آيات القرآن للإرشاد والتوجيه والقواعد الفقهية والسلوكية والقلة القليلة هى التى لابسها أسباب نزول وذلك بأن تكون مصحوبة بقوله سبحانه ويسألونك، ويستفتونك أو قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها أو قصة الإحسان إلى الوالدين وعدم طاعتهما فى خصوص الشرك.

المبحث السادس
نزول القرآن على سبعة أحرف

لقد كـان للعرب لهـجات شتى حـسب قبائلـهم تنبع من طبيعـة فطرتهم فى جرسها وأصواتهـا وحروفها، إلا أن قريشا من بين العرب قد تهيأت لها عوامل جعلت للُغتها الصدارة بين فروع العربيـة الأخرى من جوار البيت وعمارة المسجد الحرام والإشراف على الـتجارة فأنزلها العـرب جميعـا منزلة الأب للغاتهـم فكان طبعـيا أن يتنزل القـرآن بلغة قريش التى هى أفـصح لغات العـرب على الرسول القرشى صلوات ربى وتسليـماته عليه تأليفاً للعـرب وتحقيقا لإعـجاز القرآن حين سُقِط فى أيديهم أن يأتوا بمثله أو بسورة أو بآية من مثله.

وإذا كان العرب تتفاوت لهجـاتهم فى المعنى الواحد بوجه من وجوه التفاوت، فالقـرآن الذى أوحى الله به لرسوله محمـد ﷺ يكمل له معنى الإعجـاز إذا كان مُستَجمعا لحروفه وأوجه قراءاته لـلخالص من هذه اللهجات العربية مما يُيَسر على الناس القراءة والحفظ والفهم والمعرفة.

وقد تواترت الأحاديث بنزول القرآن على سبعة أحرف من ذلك:

فعن عبدالرحمن بن عبدالقارى قال، قال رسول الله ﷺ :

«. . إن القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا منه ماتيسر»[1].

يعنى اقرءوا بأى القراءات شئتم فقد أصَبْتم حسب الستكم وأخذتم الثواب .

أولا: اختلاف العلماء فى المراد بالأحرف السبعة والترجيح بينها:

وقد اختلف العلماء فى تفسير معنى هذه الأحرف حتى قال السيوطى:

«أنها وصلت إلى أكثر من أربعين قولا»[2] وأكثر هذه الآراء متداخل.

---

(١) صحيح البخارى جـ ٢ ص ٨٥٢ ـ ٤٩ ـ خصومات ـ ٣ ـ باب كلام الخصوم ٢٢٨٧.

(٢) الإتقان للسيوطى جـ١ ص ٤٥.

١ ـ «أحد هذه الآراء أنه من المشكل الذى لايُدرى معناه بالضبط، لأن الحرف يصدق لغة على حرف الهجاء وعلى الكلمة وعلى المعنى وعلى الجهة»[(١)] .

فذهب أكثرهم إلى أن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب فى التعبيرعن معنى من المعانى فيأتى القرآن منزلا بألفاظ على قدر هذه اللغات لهذا المعنى الواحد وحيث لايكون هناك اختلاف فإنه يأتى بلفظ واحد غالبا.

قال السيوطى «واختلفوا فى تحديد اللغات السبع فقيل: هى لغات قريش، وهذيل، وثقيف، وهوازن، وكنانة، وتميم، واليمن، وقيل غير ذلك»[(٢)].

فربما أدخل البعض لهجات أخرى فى هذه المذكورات وأخرج غيرها منها، وقد تتداخل أكثر من لهجة مع بعضها فى كيفية النطق ببعض الكلمات.

وهم يقصدون بالسبع عموما أيا كان اسمها أفصح لهجات العرب.

٢ ـ وقيل «إنه ليس المراد بالسبعة حقيقة العدد بل المراد التيسير والتسهيل والسّعة، ولفظ السبعة يطلق على إرادة الكثرة»[(٣)]. وللتهوين على الأمة شرفا لها وخصوصية لفضلها.

فقد كان العرب ـ الذى نزل القرآن بلغتهم ـ لهجاتهم مختلفة وألسنتهم شتى ويَعْسر على أحدهم الانتقال من لهجة إلى غيرها أو من حرف إلى آخر فلو كُلِّفوا بذلك لكان هذا التكليف بما لايستطاع ـ وإشادة بفضل القرآن وكماله وإعجازه بصورة فريدة فى حياة البشرية جمعاء.

٣ ـ قيل كذلك «أن المراد بها سبع قراءات وتعقب بأنه لايوجد فى القرآن كلمة تقرأ على سبعة أوجه إلا القليل مثل (عبدالطاغوت[(*)])»[(٤)]ـ (ولاتقل لهما

---

(١) الإتقان للسيوطى جـ ١ ص ٤٥ .

(٢) المرجع السابق ص٤٧.

(٣) المرجع السابق نفس الصفحة.

(٤) من الآية ٦٠ المائدة.

(*) واختلف فى عبدالطاغوت: فحمزة بضم الباء وفتح الدال وخفض الطاغوت على أن عبد واحد يراد به الكثرة، والطاغوت مجرور بإضافته إليه أى وجعل منهم عبدالطاغوت أى خدمه. =

أف(*)[1]، [2] يعنى لا تتأفف لهما ضجرا ولو كان هناك أدنى من الأف. لنهى الله عنه.

حيث ورد بشأنهما قراءات عديدة باختلاف التشكيل والإعراب وما قد يؤدى إلى ذلك من إفراد أو جمع.

٤ - يذكر السيوطى كذلك رأيا من الآراء فى المراد بالأحرف السبعة: أنها الأوجه التى يقع بها التغاير، فمنها:

(أ) ما يتغير حركته ولايزول معناه ولاصورته مثل (ولا يضار كاتب)[3]. بالفتح والرفع[4]، فالمعنى واحد بكل منهما.

(ب) «ومنها ما يتغير بالفعل فى شكل الكلمة ومعناها مثل قوله تعالى:

﴿فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا﴾[5]. [6]. فقد بطروا النعمة وسئموا الراحة فَدَعواْ على أنفسهم بِمشقة الأسفار. «فَقُرِىء بنصب (ربَّنا) على أنه منادى مضاف وباعدْ بصيغة الأمر وقرئ ربُّنا بالرفع وباعَدَ بفتح العين، على أنه فعل ماض،

=وعن الحسن: فتح العين والدال وسكون الباء وخفض الطاغوت.

وعن الشنبوذي: ضم العين والباء وفتح الدال وخفض الطاغوت جمع عبيد» والباقون بفتح العين والباء على أنه فعل ماض ونصب الطاغوت مفعولا به.

(القراءات الأربع عشر للبناء ص٢٠١).

(١) من الآية ٢٣ الإسراء.

(٢) الإتقان للسيوطى جـ١ ص ٤٦

(٣) من الآية ٢٨٢ البقرة.

(٤) وفى القراءات الأربع عشر ص١٦٦: «بتخفيف الراء مع إسكانها لأبى جعفر، والباقون بالتشديد مع الفتحة وعن أبى مُحيصن رفع الراء على أنه نفى».

(*) واختلف فى أف: فنافع وغيره بتشديد الفاء مع كونها مُنونة فى الثلاثة للتنكير، وابن كثير وغيره بفتح الفاء من غير تنوين فيها للتخفيف، والباقون بكسرها بلا تنوين على أصل التقاء الساكنين ولقصد التعريف وهو صوت يدل على تضجر ولغة الحجاز الكسر بالتنوين وعدمه، ولغة قيس الفتح.

(القراءات الأربع عشر للبناء ص٢٨٣).

(٥) من الآية ١٩ سبأ.

(٦) الإتقان للسيوطى جـ١ ص٤٦

وقرئ بَعَّد بفتح العين مشددة مع رفع ربُّنا أيضا»[1] .

ومن هنا اختلفت المعانى باختلاف القراءات وتعددها.

(جـ) ومنها مايكون بتغيير حرف فى الكلمة ولايتغير المعنى مثل:

(يعملون وتعملون) فى آخر سورة هود «بالياء والتاء»[2]. على سبيل المثال لا الحصر وغيرها كثير بالغيبة والخطاب وفى هذا تأكيد للمعنى وفى ذلك بلاغة بليغة.

ومن هذا القبيل كذلك «السين والصاد»[3]. فى قوله تعالى: ﴿**اهدنا الصراط المستقيم**﴾ آية ٦ الفاتحة تُنطق بكلَيْهما على سبيل المثال كذلك ولاتغيير فى المعنى. كذلك «قرأ خلف عن حمزة بإشْمام الصاد الزاى وقرأ الحسن اهدنا صراطا مستقيما بالنصب والتنوين فيهما»[4]. وذلك حتى يتمشى مع اللهجات العَرَبيَّة تيسيرا.

(د) ومنها ما يتغيّر باللفظ بإبدال حرف بحرف بما قد يؤدى إلى تغيير المعنى مثل قوله تعالى : ﴿**وانظر إلى العظام كيف نُنْشزها**﴾[5]. «قرىء بالزاى المعجمة مع ضم النون وقرىء بالراء المهْملة مع فتح النون ـ فابن عامر وغيره بالزاى من النشز وهو الارتفاع أى يرتفع بعضها على بعض للتركيب وغيرهم بالراء المهملة من أنشر الله الموتى يعنى أحياهم»[6].

وهكذا يختلف المعنى ليُرِيَنا إعجاز القدرة الإلهية، كيف أنه يُعيد تركيب العظام ويُحْيِيها بعدما أماتها أول مرة وفي ذلك عبرة لأولى الألباب.

(هـ) ومنها ما يَتغير بالتقديم والتأخير إما فى الحرف كقوله تعالى (أفلم ييأس)

---

(١) القراءات الأربع عشر للبناء ص ٣٥٩.

(٢) القراءات الأربع عشر للبناء ص ٢٦١ «وقرىء تعملون بالخطاب نافع وغيره والباقون بالغيب».

(٣) القراءات للبناء ص ١٢٣ .

(٤) القراءات الأربع عشر للبناء ص١٢٣ .

(٥) من الآية ٢٥٩ البقرة

(٦) القراءات للبناء ص١٦٢ .

الآية ٣١ الرعد - وقرىء «أفلم يأيس»[1].

أى أفلم يقنط وييأس المؤمنون من إيمان الكفار، ويعلموا أنه تعالى لو شاء هدايتهم لهداهم لأن الأمر له ولكن قضت الحِكْمة أن يكون بناء التكليف على الاختيار.

يقول الراغب: «اليأس انتفاء الطمع، وقيل معناه أفلم يعلموا، ولم يرد أن اليأس موضوع فى كلامهم للعلم وإنما قصد أن يأس الذين آمنوا من ذلك يقتضى أن يحصل بعد العلم بانتفاء ذلك فإذن ثبوت يأسهم يقتضى ثبوت حصول علمهم»[2] ليدركوا الحق ويُسَلّموا به.

والاختلاف في القراءة هنا بالتقديم والتأخير فى الحرف يُؤدى نفس المعني. وقد يكون التغيير بالتقديم والتأخير فى الكلمات نفسها باختلاف قراءة كل من الكلمتين المتجاورتين والاختلاف في المعنى محدود نظرا لتقديم إحدى الكلمتين على الأخرى مثال ذلك: فيَقتلُون ويُقتلون من الآية (١١١ - التوبة) (بالبناء للفاعل في الأول وللمفعول فى الثانى وقُرئ بالعكس أى بالبناء للمفعول فى الأول وللفاعل فى الثانى)[3].

وسواء تقدم هذا أو ذاك على الآخر فالمعنى فى عمومه واحد، فسبحان من له الحجة البالغة والبلاغة البليغة.

(ر) ومنها ما يتغير بالزيادة والنقصان سواء أكانت بكلمة أو بحرف، وقد لايكون هناك اختلاف فى المعنى.

فمثال الاختلاف بزيادة كلمة أو نقصها قوله تعالى فى سورة التوبة: ﴿وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار﴾ من الآية ١٠٠ التوبة.

«قرىء من تحتها الأنهار بزيادة من وهما قراءتان متواترتان»[4].

---

(١) القراءات للبناء ص ٢٦٦.

(٢) مفردات الراغب ص٥٧٤.

(٣) القراءات للبناء ص٢٤٥.

(٤) القراءات للبناء ص٢٤٤.

فابن كثير بمن الجرة وخفض تحتها بها والباقون بحذف من وفتح تحتها على المفعولية.

ولاتغيير يذكر فى المعنى، بل ربما أن الزيادة بالحرف للتأكيد والتشريف فزيادة المبنى تؤدى إلى زيادة المعني.

ونقصان حرف كقوله تعالى ﴿قالوا اتخذ الله ولدا﴾ «١١٦» البقرة بدون واو، قَبْل قالوا.

قال البناء «واختلف فى عليم وقالوا اتخذ الله ولدا فابن عامر عليم قالوا بغير واو على الاستئناف (كأن الكلام توضيح لسابق ادعاءاتهم) - والباقون وهم الجمهور بالواو عطف جملة على مثلها»[1] يعنى أن من جملة ادعاءاتهم قولهم أن الله اتخذ ولدا سبحانه.

وهنا يظهر الإعجاز البلاغى فى تركيب الأسلوب بإعطاء أوجه متقاربة فى المعنى دقيقة.

(ز) ومن أوجه التغاير اختلاف الأسماء بالإفراد والتذكير وفرعهما من تثنية وجمع وتأنيث.

وعلى سبيل المثال ما قاله البناء: «واختلف فى لأماناتهم فى (المؤمنون والمعارج) ورسمها فى المصحف لأمنتهم يحتمل القراءتين لخلوها من الألف الساكنة ومآل الوجهين فى المعنى واحد، فيُراد بالجمع الاستغراق الدال على الجنسية ويراد بالإفراد الجنس الدال على معنى الكثرة أى جنس الأمانة»[2] .

فالتعبير القرآنى بما يَعْنيه من إفراد يدخل تحته أنواع وجمع بمختلف الصور وفى هذا مافيه من بلاغة رصينة.

(ط) ويقع الاختلاف والتغاير فى وجوه الإعراب وذلك : مثل قوله تعالى: ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات﴾[3] «حيث قرىء بنصب آدم ورفع كلمات»[4] .

---

(١) القراءات للبناء ص١٤٦.

(٢) ذكر البناء فى القراءات ص٣١٧: «واختلف فى لأماناتهم فى (المؤمنون والمعارج) فابن كثير وابن محيصن بغير الف فيهما على الإفراد والباقون بالالف على الجمع».

(٣) من الآية ٣٧ البقرة.

(٤) البناء ص١٣٤ «اختلف فى تلقى آدم من ربه كلمات فابن كثير بنصب آدم ورفع كلمات على إسناد =

(ل) ويقع التغاير واختلاف اللهجات بالتفخيم والترقيق والإمالة والهمز والتسهيل ومثال الإمالة وعدمها فى قوله تعالى ﴿هل أتاك حديث موسى﴾ من الآية ٩ طه قرىء بإمالة أتى وموسى، وترقيق الراء فى قوله:

(إنه كان بعباده خبيرا بصيرا) من الآية ٣٠ الإسراء وتفخيم اللام فى ﴿الطلاق مرّتان﴾ من الآية ٢٢٩ البقرة - وتسهيل الهمزة فى قوله (قد أفلح المؤمنون) آية ١ سورة المؤمنون يعنى الهمزة التى على واو (مؤمنون) كأن الهمزة ليست موجودة وهكذا.

وقد استعرضنا الآراء الخاصة بالاختلاف والتغاير فى الألسنة واللهجات والإعرابات والتى أدت إلى الاختلاف فى معنى الأحرف السبعة.

ولكن أرجح الآراء بخصوص هذه القضية هو الرأى الأول الذى يقرر بأن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب فى المعنى الواحد نحو أقبل وتعال وهلمّ فهى ألفاظ مختلفة لمعنى واحد ويؤكده ماجاء فى حديث أبىّ بن كعب الذى رواه مسلم: «أن النبى ﷺ كان عند أضاة بنى غفار قال فأتاه جبريل فقال إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف فقال أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتى لاتطيق ذلك، ثم أتاه الثانية فقال إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين فقال أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتى لاتطيق ذلك ثم جاءه الثالثة فقال إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف فقال أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتى لاتطيق ذلك ثم جاءه الرابعة فقال إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف فأيّما حرف قرأوا عليه فقد أصابوا فكلها شاف كاف»[1].

والقصد عموما هو اختلاف الألفاظ فى المعنى الواحد وأن السبعة لاتعنى على التحديد، بل على مدلول الكثرة على الإطلاق لأن القبيلة الواحدة قد تختلف فيها اللهجة بين عشائرها والله تعالى أعلى وأعلم.

= الفعل إلى الكلمات وإيقاعه على آدم فكأنه قال فجاءت كلمات وغيرهم برفع آدم ونصب كلمات بالكسرة.. الخ.

(١) صحيح مسلم جـ١ ص ٥٦٢ - ٦/ كتاب صلاة المسافرين ٢٧٤ - ٨٢١ عن أبى بن كعب.

ثانياً : حكمة نزول القرآن على سبعة أحرف:

تتلخص حكمة نزول القرآن على سبعة أحرف فى أمور:

الأول : «التيسير على الأمة الإسلامية التى شُوفهت بالقرآن فإنها كانت قبائل كثيرة بينها اختلاف في اللهجات ونبرات الأصوات وطريقة الأداء»[1]. - حسب اختلاف قبائلها وعشائرها.

فمن أجل تيسير القراءة والحفظ والتخفيف والتهوين على قوم أميين، وفى هذا توسعة ورحمة من فضل الله، على عباده وليُحبب إليهم القرآن وحفظه والعمل بأحكامه.

الثانى: **إعجاز القرآن للفطرة اللغوية عند العرب** بتحدى كل لهجاتهم جمعاء ومحاولة جمعهم على لسان واحد وهو لسان قريش الذى صَهَر فى بَوْتَقَته مُعظم اللهجات العربية ولهذا حكمة إلهية سامية لأن وحدة اللسان العام من أهم عوامل وحدة الأمة.

الثالث: **إعجاز القرآن فى معانيه وأحكامه** فإن تقلب الصور اللفظية فى بعض الأحرف والكلمات يتهيأ معه استنباط الأحكام التى تجعل القرآن مُلائما لكل عصر ومِصر، ولهذا احتج الفقهاء فى الاستنباط والاجتهاد بالقراءات، فتنوع القراءات يقوم مقام تعدد الآيات كما يظهر ذلك فى اختلاف الآراء الفقهية بتعدد القراءة فى موضوع وجوه الحكمة فى تعدد القراءات القرآنية.

(١) مناهل العرفان جـ١ ص ١٤٥.

المبحث السابع
المكى والمدنى

كان القوم بادىء ذي بَدْء يَعْبدون الأوثان ويُشركون بالله مالم ينزل به سلطانا، وينكرون الوحى ويكذبون بيوم الدين، وينكرون البعث والنشور وكانوا ألداء فى الخصومة أهل مماراة ولجاجة فى القول عن فصاحة وبيان فنزل فيهم الوحى المكى قوارع زاجرة وحُجَجا قاطعة ليحطم وثنيتهم ويدعوهم إلى الوحدانية ويقيم دلائل النبوة ويضرب لهم الأمثال تلو الأمثال للحياة الأخرى ومافيها من جنة ومن نار ويتحداهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن ويسوق إليهم قصص المكذبين الغابرين عِبْرة وذكرى ويقيم لهم الأدلة الكونية والبراهين العقلية فنزلت الآيات المدنيةِ طويلة المقاطع تتناول أحكام الإسلام وحدوده وتدعو إلى الجهاد والاستشهاد فى سبيل الله وتُفصّل أصول التشريع وتضع قواعد المجتمع وتحدد روابط الأسرة وصلات الأفراد وعلاقات الدول والأمم كما تفضح المنافقين وتكشف دخيلتهم ﴿**والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون**﴾[1] ـ فسبحانه وتعالى له الأمر من قبل ومن بعد.

الاصطلاحات في معني المكي والمدني من الآيات القرآنية:

أولا: «أن المكى مانزل بمكة ولو بعد الهجرة، ويشمل مكة وما بضواحيها من منى وعرفات والحديبية ـ والمدنى مانزل بالمدينة ويشمل ما بضواحيها من بدر وأحد»[2].

وهذا التقسيم لوحظ فيه مكان النزول وحسب وهو ليس بجامع كما ترى، وكما سيتضح لنا عِنْدَ استعراض الرأى المختار فى العنصر الثالث.

---

(١) من الآية ٢١ يوسف.

(٢) مناهل العرفان جـ١ ص ١٩٣.

ثانيا : «المكى مـاوقع خطابا لأهل مكة وخُوطبوا بـ (يا أيهـا الناس) وإن كان غيرهم داخلاً فيهم، والمدنى ماوقع خطابا لأهل المدينة وخوطبوا بـ (يا أيها الذين آمنوا)[1]. يعنى صدقوا بقلوبهم.

ولوحظ على هذا التـعريف كـذلك القصور فـهناك من الآيات والسور المـدنية مانودى فيـها بـ (يا أيها الناس) كـسورة النساء مثـلا فلفظ الناس عام لكل الناس مؤمنهم وكافرهم.

ثالثا : وهو المشـهور والمختـار عندنا «أن المكى مـانزل قبل الهـجرة وإن كـان بالمدينة والمدنى مانزل بعد الهجرة وإن كان بمكة»[2] ـ كما ذكره الزركشى.

أيا كان المكان والزمان للنزول وهذا هو التعريف الأمثل والأقطع فراراً من سائر الاستشكالات.

فلو نزلت آيات قبل الهجرة فى غير مكة فهى من قبيل المكى، ولو نزلت آيات بعد الهجرة فى غير المدينة فهى من قبيل المدنى.

ومثال ذلك قوله تعالي: ﴿إن الله يأمـركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلهـا﴾[3]. الآية مدنية مع أن نزولها «كان عام الفتح فى جوف مكة»[4] .

وقوله تعالى : ﴿اليوم أكـملت لكم دينكم﴾[5]. ـ الآية مدنيـة مع أن نزولها «عام حجة الوداع وكان يوم عرفة بعد العصر»[6] .

وذكرصاحب البـرهان كذلك أن آية ﴿واتقوا يومـا ترجعون فـيه إلى الله﴾[7]، والتى هى فى سـورة البقـرة المدنية «هذه الآية نزلت يوم النـحر فى حجـة الوداع

---

(١) البرهان للزركشى جـ١ ص ١٨٧.
(٢) المرجع السـابق نفس الصفحة.
(٣) من الآية ٥٨ النساء.
(٤) أسباب النزول للسيوطى ص١١٧.
(٥) من الآية ٣ المائدة.
(٦) أسباب النزول للسيوطى ص ١٤٠.
(٧) من الآية ٢٨١ البقرة.

بمنى»[1]- ونزولها هناك لا يُخرجها عن المدنى باصطلاح أن مانزل بعد الهجرة مدنى سواء أكان بالمدينة أو غيرها.

ولما كان هذا التعريف جامعا مانعا ارتضاه جمهور العلماء وهذا هو الأرجح بمشيئة الله تعالي.

وهل لمعرفة المكي والمدني من فوائد؟

أجل ويمكن إجمالها فيما يلى:

أولا: فيما يذكره السيوطى من فوائد «**معرفة ذلك الاستفادة به فى التفسير** فالعلم بالمتأخر يكون ناسخا أو مخصصاً»[2] فإذا توقّفْنا أى الآيتين ناسخ للآخر فهنا نجزم بأن المدنى ناسخ للمكى لِسَبْق عَهْده عنه.

ثانيا: وفيما يُنوه إليه الزرقانى «**ومن فوائده أيضا معرفة تاريخ التشريع وتدرجه** الحكيم بوجه عام مما يوحى بسمو السياسة الإسلامية فى تربية الشعوب والأفراد»[3] - والأخذ بأيديهم إلى منازل فَضْله، وفى هذا ذكرى وعِظة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً.

ثالثا: كما يذكر الزرقانى كذلك «**الثقة بهذا القرآن وبوصوله إلينا سالماً من التغيير والتحريف** ويدل على ذلك اهتمام المسلمين به كل هذا الاهتمام حتى ليعرفون ويتناقلون مانزل منه قبل الهجرة ومانزل بعدها»[4] - والإحاطة بترتيب النزول واختلافها عن الترتيب فى المصحف والذى هو توقيفى كذلك باتفاق ومافى ذلك كله من حِكم فسبحان من حفظ كتابه فقال وقوله الحق والصدق **﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾**[5] - ليزداد المؤمن إيمانا على إيمان ويقينا على يقين وليطمئن قلبه فلا يتزعزع بجدل المجادلين وجحود المعاندين.

---

(١) البرهان للزركشى جـ١ ص ١٨٧.

(٢) الإتقان للسيوطى جـ١ ص ٢٨.

(٣) مناهل العرفان جـ١ ص ١٩٥.

(٤) مناهل العرفان جـ١ ص ١٩٥.

(٥) آية ٩ الحجر.

الطرق الموصلة إلي معرفة المكي والمدنى:

اعتمد العلماء فى معرف المكى والمدنى على منهجين أساسين:

«المنهج السماعى النقلى والمنهج القياسى الاجتهادى»[1] .

والسماعى يعتمد على النقل والقيـاسى يعتمد على العقل، والنقل والعقل هما طريقا المعرفة السليمة والتحقيق العلمى الدقيق.

والمنهج السـماعى النقلى يسـتند إلى الرواية الصـحيحـة عن الصحـابة الذين عاصروا الوحى وشاهدوا نزوله أو عن التابعين الذين تلقـوا عن الصحابة وسمعوا منهم كيفية النزول ومواقعه وأحداثه.

ويذكر السيوطى : «إنما يرجع فى معرفة المكى والمدنى لحفظ الصحابة والتابعين ولم يرد عن رسول الله ﷺ قـول لأنه لم يؤمر به ولم يجـعل الله علم ذلك من فرائض الأمة وإن وجب فى بعضه على أهل العلم ومعرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ فقد يعرف ذلك بغير نص الرسول الله ﷺ»[2].

وذلك كله يتضح لنا مما درسه الفقهاء رضـوان الله تعالى عليهم، حينما نشأت المذاهب الفقهية ومدارس أهل الرأى والاجتهاد على حد سواء مما أنار الطريق أمام السالكين على نهج الحق.

---

(١) البرهان الزركشى جـ١ ص ١٨٩ بتصرف.

(٢) الإتقان للسيوطى جـ١ ص٩.

العلامات والضوابط التي يعرف بها المكي:

ونورد هنا ماورد بشأنها عند كل من الزركشى والزرقانى باختصار:

« ١ ـ كل سورة فيها لفظ (كلاّ) فهى مكية، وقد ذكر هذا اللفظ فى القرآن ثلاثا وثلاثين مرّة فى خمس عشرة سورة كلها فى النصف الأخير من القرآن لأنه نزل أكثره بمكة وأكثرها جبابرة فتكررت فيه على وجه التهديد والتعنيف لهم والإنكار عليهم.

٢ ـ كل سورة فيها سجدة فهى مكية علما بأن سورة الحج المدنية، نرى السجدة فيها عند الشافعية فقط كما هو موضح فى المصحف العثمانى الذى بين أيدينا.

٣ ـ كل سورة فى أولها حروف التهجى هى مكية سوى سورة البقرة وآل عمران فهما مدنيتان بالإجماع وفى الرعد خلاف فى هذه المسألة.

٤ ـ كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم السابقة فهى مكية سوى البقرة.

٥ ـ كل سورة فيها قصة آدم وإبليس فهى مكية سوى البقرة أيضا.

مع ملاحظة أننا أسقطنا من الاعتبار ضابط التفرقة القائل بنداء يا أيها الناس أو يا أيها الذين آمنوا من التمييز بين المكى والمدنى لأن فيه استثناءات كثيرة ففى البقرة والحج والنساء وهى سور مدنية فيها نداء يا أيها الناس الذى اعتبره البعض من مزايا المكى.

٦ ـ ومن ناحية المميزات الموضوعية وخصائص الأسلوب فتتمثل فى الدعوة إلى التوحيد وإثبات الرسالة والبعث والجزاء والقيامة وأهوالها والنار وعذابها والجنة ونعيمها ومجادلة المشركين بالبراهين العقلية والآيات الكونية، وفضح جرائم المشركين وماكانوا عليه من سوء العادات مع قِصر الفواصل وقوة الألفاظ وإيجاز العبارة»[١].

---

(١) أنظر فى هذا كله البرهان للزركشى جـ ١ ص ١٨٩ ومناهل العرفان جـ١ ص ١٩٧.

ضوابط ومميزات المدني هي كما يلي:

وهنا نشير إلى ماجاء بمناهل العرفان مع التوضيح لآرائه:

« ١ـ كل سورة فيها الحدود والفرائض والمواريث فهى مدنية ـ فهى آيات الأحكام.

٢ ـ كل سورة فيها إذن بالجهاد وبيان لأحكامه فهى مدنية (لأنه يلاحظ أن الغزوات ضد المشركين بدأت بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة) (باستثناء بعض إشارات كمثل قوله تعالي: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾[1] ـ يعنى سيهزم جمع المشركين ويولون الأدبار يوم بدر. وهذه الآيات نزلت فى مكة إخبارا بالغيب.

٣ ـ كل سورة فيها ذكر للمنافقين فهى مدنية ماعدا سورة العنكبوت والتحقيق أن سورة العنكبوت مكية ماعدا الآيات الإحدى عشرة الأولى منها فإنها مدنية وهى التى ذكر فيها المنافقون.

٤ ـ كذلك فإن الآيات التى ناقشت أهل الكتاب وأبطلت دعاواهم سواء أكانوا هودا أو نصارى فإنها مدنية.

٥ ـ والآيات المدنية كذلك تناولت أحكام الصلاة والصيام والزكاة والرّبا والزنا والسرقة وما إليها»[2] .

هذا مع وجود بعض إشارات للصلاة وللصدقات فى سور وآيات مكية.

---

(١) آية ٤٥ القمر.

(٢) مناهل العرفان جـ١ ص ١٩٨ بتصرف.

المبحث الثامن
جمع القرآن الكريم وما يتعلق به

أشار صاحب مناهل العرفان[1] إلى أن كلمة جمع القرآن تطلق تارة ويراد منها حفظه واستظهاره فى الصدور، وتطلق أخرى ويراد منها كتابته آيات وسورا، فهذا جمع فى الصحائف والسطور وذاك جمع فى القلوب والصدور.

ثم إن جمعه بمعنى كتابته حدث فى الصدر الأول ثلاث مرار: الأول فى عهد النبى ﷺ والثانية فى خلافة أبى بكر والثالثة على عهد عثمان وآنذاك نسخت المصاحف وأرسلت إلى الآفاق مع القراء.

أولا: جمع القرآن بمعنى حفظه فى الصدور على عهد الرسول ﷺ والأصحاب:

نزل القرآن على النبى ﷺ فكانت همته باديء ذى بدء مُتَوَجهة نحو حفظه واستظهارهِ ثم قراءته على الناس على مكث ومهل ليحفظوه ويستظهروه ضرورة أنه نبى أمى بعثه الله فى الأميين يقول الله عز وجل: ﴿**هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة..**﴾[2]. فهو برحمته وحكمته بعث فى العرب رسولا من جملتهم أُمياً مثلهم بشرع شامل وكامل فيه الهداية والبيان لكل ما يحتاج إليه الناس فى معاشهم ومعادهم.

ومن شأن الأمى أن يُعَوِّل على حافظته فيما يعنيه استحضاره وجمعه ويبلغ من حرصه ﷺ على استظهار القرآن وحفظه أنه كان يحرك لسانه به ساعة يوحى إليه استعجالا لحفظه وجمعه فى قلبه مخافة أن تَفوته كلمة أو يُفْلتَ منه حرف ومازال كذلك حتى طَمْأنه ربه بأن وعده أن يجمعه له فى صَدْره وأنْ يسهل له قراءة لفظه وفهم معناه، فقال له: ﴿**لا تُحرِّك به لسانك لتَعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا**

---

(١) مناهل العرفان للزرقانى جـ١ ص ٢٣٩ بتصرف.

(٢) من الآية ٢ الجمعة.

قرآناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه﴾[1] .

وأما الأصحاب رضوان الله عليهم فكان القرآن دستور حياتهم يتنافسون فى استظهاره ويتسابقون إلى مدارسته ويتفاضلون فيما بينهم على مقدار مايحفظون منه يقومون به في الليل ويتلونه بالأسحار فى غَسَقِ الدُّجى فكانت أصواتهم بالقرآن كدوى النَّحْل.

«وكان حفّاظه فى حياة الرسول ﷺ جَمًّا غفيرا منهم الأربعة الخلفاء وطلحة بن عبدالله وسعد بن أبي وقاص وعبدالله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وسالم مولى أبى حذيفة وأبو هريرة وعبدالله بن عمر وعبدالله ابن عباس وعمرو بن العاص وابنه وغيرهم من المهاجرين»[2] ـ رضوان الله تبارك وتعالى عليهم أجمعين.

ومن حفظة القرآن من الأنصار فى عهده ﷺ أبىّ بن كعب أحد كتاب الوحى ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو الدرداء وأنس بن مالك وغيرهم[3].

وذكر السيوطى «أنه قد قتل يوم اليمامة سبعون من القراء وقتل فى عهد النبى ﷺ ببئر معونة مثل هذا العدد»[4] ـ وقد لايكون هؤلاء جميعا من حفظة القرآن كله.

ثانيا : جمع القرآن بمعني كتابته:

١ ـ كانت عزيمة الرسول ﷺ والأصحاب متوجهة أول الأمر نحو جمع القرآن فى القلوب بحفظه واستظهاره لأنه نبى أمى بعثه الله فى الأميين، كما أن أدوات الكتابة لم تكن ميسرة لديهم فكان التعويل على الحفظ فى الصدور يفوق التعويل على الحفظ بين السطور.

وعلى أى حال لم تصرفهم العناية بحفظ القرآن واستظهاره عن العناية بكتابته

---

(١) آيات ١٦, ١٧, ١٨, ١٩ من سورة القيامة.

(٢) مناهل العرفان جـ١ ص٢٤٢ .

(٣) المرجع السابق نفس الصفحة.

(٤) الإتقان للسيوطى جـ١ ص٧١.

ونَقْشه بمقدار ماسمحت به وسائل الكتابة.

وقد اتخذ الرسول ﷺ كتـابا للوحى من الأصحاب أمثال «زيد بن ثابت وأبى ابن كـعب وخـالد بن الوليـد وغيـرهم وكـان يدلهم على مـوضع المكتـوب من سورته»[1]. ويكتبونه فيما يسهل عليهم من العسب،[2]. واللّخاف[3] والرقاع[4] ـ وقطع الأديم يعنى الجلد وعظام الأكـتاف والأضلاع ثم يُوضع المكتـوب فى بيت الرسول ﷺ وكان منثورا ولم يجمع فى صحف أو مصاحف فى عهده ﷺ.

وقُبِضَ الرسول ﷺ والقـرآن محفوظ فى الصدور ومكتـوب فى الصحف كل سورة فى صحيفة على حدة فلم يجـمع فى مصحف عام حيث كان الوحى يتنزل تباعا فيحفظه القراء ويكتبـه الكتبة ولم تدع الحاجة إلى تدوينه فى مصحف واحد لأنه عليه الصلاة والسلام كـان يترقب نزول الوحى من حين لآخر وقد يكون منه الناسخ لشىء نزل من قبل، وكتابة القرآن لم يكن ترتيبها بترتيب النزول بل تكتب الآية بعد نزولها حيث يشير ﷺ إلى موضع كتابتها بين آية كذا وآية كذا فى سورة كذا ولو جمع القرآن كله بين دفتى مصحف واحد لأدى هذا إلى التغيير كلما نزل شىء من الوحى ، ولهذا تأخرت كتابة المصحف الجامع إلى أن كمل نزول القرآن بموته ﷺ، فلما انقضى نـزوله بوفاته ﷺ ألهم الله الخلفاء الراشدين لجمـعه وفاء بوعد الله الصادق بضمان حفظه مصْداقا لقوله سبحانه **﴿إنا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾**[5] ـ فكان ابتداء ذلك على يد الصديق أبى بكر بمشورة عمر الفاروق رضى الله تعالى عنهما.

---

(١) مناهل العرفان جـ١ ص ٢٤٦.

(٢) العسب : جريد النخل إذا نُحِّيَ عنه خوصه :البرهان جـ١ ص٢٣٣.

(٣) اللّخاف: حجارة بيض عريضة رقاق : البرهان للزركشى جـ١ ص٢٣٣.

(٤) الرقاع : جمع رقعة من جلد أو ورق أو غيره: مناهل العرفان جـ ١ ص٢٤٧.

(٥) آية رقم ٩ الحجر.

٢ ـ جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

لما آل أمر الخلافة الراشدة إلى أبى بكر الصديق بعد أن لحق المصطفى صلوات ربى وسلامه عليه بالرفيق الأعلى واستَحرّ «القتل يوم اليمامة بقراء القرآن فى المعركة الطاحنة ضد المرتدين عند ذاك أتى عمر أبا بكر قائلا له إنى أرى أن تأمر بجمع القرآن فقال أبو بكر لعمر كيف نَفْعَلُ شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ فقال عمر والله إن هذا خير فلم يزل عمر يراجعنى يعنى أبا بكر حتى شرح الله صدرى لذلك، وقال أبو بكر لزيد بن ثابت إنك رجل شاب عاقل لانتهمك وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن واجمعه فلم يزل أبو بكر يراجع زيدا حتى شرح الله صدره للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر فتتبع القرآن بجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال حتى وجد آخر التوبة ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾[1] مع أبى خزيمة الأنصارى الذى جعل النبى ﷺ شهادته بشهادة رجلين، لم يجدها مع أحد غيره فألحقها فى سورتها فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حتى قُبض ثم عند حفصة بنت عمر»[2]

وهكذا تضافرت جهود الصحابة الحفظة المخلصين مع زيد بن ثابت فى جمع القرآن وحفظه، وهذا هو الجمع الثانى.

---

(١) آية ١٢٨ التوبة.

(٢) البرهان للزركشى جـ١ ص٢٣٣، ص٢٣٤.

٣ ـ جمع القرآن الكريم في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه:

وهذا هو الجمع الثالث وكان سنة ٢٥ هجرية.

فى ذاك العهد اتسعت الفتوحات الإسلامية وتَفَرق القُراء فى الأمصار وأخذ أهل كلّ مصر عَمن وَفد إليهم قراءته، ووجوه القراءة التى يُؤدون بها القرآن مختلفة باختلاف الأخرى التى نزل عليها فكانوا إذا ضَمّهم موطن من مواطن الغزو عجب البعض من وجوه هذا الاختلاف.

وذكر الزركشى «أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازى أهل الشام فى فتح أرمينية وآذربَيجان مع أهل العراق فأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة وقال حذيفة لعثمان أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلى إلينا الصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها إليك فأرسلت بها إليه فأمر زيد بن ثابت وعبدالله بن الزبير وسعد بن أبى وقاص وغيره فنسخوها فى المصاحف، قال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة إذا اختلفتم أنتم وزيد فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل فى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بماسواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق»[١].

وهذا إثبات ظاهر أن الصحابة جمعوا بين الدفتين القرآن المنزل من غير زيادة ولانقص.

وقد فعل عثمان مافعل على ملأ من الصحابة وأقرّوه على ذلك، ولم ينكر عليه واحد منهم «وهذا هو الجمع الثالث وكان سنة ٢٥ هجرية»[٢] ـ وزيادة فى التثبيت بعث مع كل مصحف صحابيا يعلم الناس القراءة الصحيحة فأرسل:

---

(١) البرهان للزركشى جـ١ ص٢٤٦.

(٢) مباحث فى علوم القرآن لمناع القطان ص١٣٤.

١ - «زيد بن ثابت إلى المدينة.

٢ - عبدالرحمن السلمى إلى الكوفة.

٣ - عامر بن قيس إلى البصرة.

٤ - عبد الله بن السائب إلى مكة.

٥ - المغيرة بن شعبة إلى الشام» [١].

ولم يكن هؤلاء وحسب بهذه المدن بل كان بها حشد كبير من حفاظ القرآن من الصحابة والتابعين الذين كانوا أئمة هُدى يُقْتَدى بهم فى تحفيظ كتاب ربهم بالعناية والضبط والرواية فكانوا خير الأنام ونفع الله بهم الإسلام، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

(١) الإتقان للسيوطى جـ١ ص ٧٣.

المبحث التاسع
القراءات القرآنية

القراءات: جمع قراءة مصدر قرأ.

وفى الاصطلاح: قال البناء «علم بِكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها مَعْزُوّاً لِناقله»[١] بمعنى مسندا لقائله.

وبعبارة أخرى: فالقراءات مذهب من مذاهب النطق فى القرآن يذهب به إمام من الأئمة القُرّاء مذهباً يُخالف غيره، وعلى سبيل المثال النطق بالحروف من تَخْفيف وتشديد وتشكيل وإمالة وغيرها.

ويذكر البناء «أنها مستمدة من السنة والإجماع»[٢] ـ وهو ما أجمع عليه أهل السنة.

والمصحف الإمام يحتمل النطق بكل القراءات إلا ماكان منها بزيادة حروف، فقد تكون ثابتة فى بعض المصاحف العثمانية دون بعض.

ويرجع عهد القراء الذين أقاموا الناس على طرائقهم فى التلاوة إلى عهد الصحابة وكان أهم من اشتهر بإقراء القرآن منهم كما ذكر السيوطى[٣] :

عثمان بن عفان ـ وعلى بن أبى طالب ـ وأُبىّ بن كعب ـ وزيد بن ثابت ـ وأبو الدرداء ـ وأبو موسى الأشعرى.

وقد قرأ على أُبىّ جماعة من الصحابة منهم أبو هريرة وابن عباس وعبدالله بن السائب وأخذ عن هؤلاء الصحابة كثير من التابعين فى كل مصر من الأمصار، كان منهم بالمدينة على سبيل المثال سعيد بن المسيب وغيره.

---

(١) القراءات الأربع عشر للبناء ص٥.

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة.

(٣) الإتقان للسيوطى جـ١ صفحات ٧٢، ٧٣.

وبمكة: مجاهد وعكرمة، **وبالكوفة:** علقمة والنخعى والشعبى وغيرهم.

وبالبصرة: الحسن وابن سيرين وقتادة وغيرهم.

وكان منهم **بالشام:** المغيرة بن أبى شهاب المخزومى صاحب عثمان.

وفى عهد التابعين: على رأس المائة الأولى من الهجرة تجرد قوم واعتنوا بضبط القراءة عناية تامة، حين دعت الحاجة إلى ذلك وجعلوها عِلْماً كما فعلوا بعلوم الشريعة وصاروا أئمةً يُقتدى بهم ويُرحل إليهم، واشتهر منهم ومن الطبقة التى تلتَهم الأئمة السبعة الذين تنسب إليهم القراءات إلى اليوم.

حصر لمشاهير القراء

وجاء حصر لهؤلاء القراء فى غاية النهاية لابن الجزرى:

١ ـ ابن عامر: إمام القراء بالشام:

هو عبدالله المكنى بأبى نعيم من التابعين تلقى القراءة عن المغيرة بن شهاب المخزومي عن عثمان عن الرسول ﷺ توفى بدمشق سنة ١١٨ هـ.

روى عنه هشام المتوفى بدمشق سنة ٢٤٥ هـ وذكوان المتوفى سنة ٢٤٢ هـ .

٢ ـ ابن كثير: هو عبدالله بن كثير الدارى إمام القراءة بمكة وهو تابعى، روى عن مجاهد عن ابن عباس عن أبيّ بن كعب عن الرسول ﷺ توفى بمكة سنة ١٢٠ هـ ، وروى عنه البزّى وغيره.

٣ ـ عاصم: هو عاصم بن أبى النجود الأسدى، قرأ على زرين حبيش عن عبدالله بن مسعود عن الرسول ﷺ وتوفى بالكوفة سنة ١٢٧ هـ ، روى عنه شعبة المتوفى سنة ١٩٣هـ، كما روى عنه حفص بن سليمان المتوفى سنة ١٧٠هـ.

٤ ـ أبو عمرو: هو أبو عمرو بن العلاء البصرى روى عن مجاهد وسعيد ابن جبير عن ابن عباس عن أبيّ بن كعب عن الرسول ﷺ توفى سنة ١٥٤ هـ، روى عنه الدورى المتوفى سنة ٢٤٦ هـ.

٥ ـ حمزة: هو حمزة بن حبيب الزيات الكوفى قرأ على سليمان بن مهران الأعيش وغيره وابن مسعود على النبى ﷺ توفى بحلوان سنة ١٥٦ هـ ، وأخذ الرواية عنه خلاد المتوفى سنة ٢٢٩ هـ، وخلف المتوفى سنة ٢٢٩ هـ.

٦ ـ نافع : هو نافع بن عبدالرحمن بن أبى نعيم إمام المدينة أخذ القراءة عن أبى جعفر القارى وعن سبعين من التابعين الذين أخذوا عن عبدالله بن عباس وأبى هريرة وأبيّ بن كعب عن الرسول ﷺ توفى سنة ١٦٩ هـ. وروى عنه

قالون وورش توفى سنة ٢٢٠ هـ.

٧ ـ **الكسائى** : هو على بن حمزة الكسائى النحوى الكوفى سنة ١٨٩ هـ.

روى عنه أبو الحارث المتوفى سنة ٢٤٠ هـ والدروى المتوفى سنة ١٤٦ هـ.

ويجب أن نلاحظ أن القراءة غير مقصورة على السبعة وحدهم فالثلاثة الآخرون وهم أبو جعفر ويعقوب وخلف[١] ـ لايقلون عنهم حفظا وإتقانا وسندا وغير العشرة كذلك كثير: مثل الحسن البصرى وابن مُحيصن وغيرهم من الرعيل الأول الذين تَعاهَدُوا كتاب الله بالحفظ والدرس رضوان الله تبارك وتعالى على الجميع.

(١) أنظر غاية النهاية لابن الجزرى جـ١ ص ١٣٩.

أنواع القراءات

يعنى تقسيمها حسب درجاتها، وقبل توضيح ذلك، نذكر ما أورده السيوطى «أن كل قراءة صَحّ سندها إلى رسول الله واستقام وجهها فى العربية (ولو بوجه) ووافقت خط المصحف الإمام»[1] - «أو وافقت أحد المصاحف العثمانية ولو تقديرا»[2] - فلا يجوز رَدّها بل هى قرآن مُنزل تصح الصلاة به، يستوى فى ذلك ماورد عن السبعة أو عن بقية العشرة أو عن غيرهم من الثقات. «ومتى اختل شرط من هذه الثلاثة فهى من الشاذ»[3]، يعنى لايصح القراءة بها فى الصلاة.

هذا ما حققه الأئمة سلفا وخلفا.

وإليك تفصيلا لأنواع القراءات:

أولا : **القراءة المتواترة**: وهى «ما نقله جمع لايتواطأ على الكذب عن جمع مثلهم، ومثلها ما حققه السبعة واتفقوا عليه ومنه قوله تعالى: **﴿سواء عليهم أأنذرتهم﴾** البقرة آية ٦ فكلهم يحقق الهمزة الأولى أما الهمزة الثانية فقالون وأبو عمرو يُسَهلانها ويُدخلان بينها ألفا.

وقوله تعالى: **﴿يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم﴾**، البقرة آية ٤٧ فقد اتفق السبعة على فتح الياء فى (نعمتيَ)[4] وهى قراءة الجمهور وقال البناء «أسكن المطوعى ياء نعمتى»[5].

وهذا النوع المتواتر هو الغالب فى القراءات.

---

(١) الإتقان للسيوطى جـ١ ص ٨١.

(٢) قال الزرقانى: فى كلمة ولو تقديرا: أنه يكفى فى الرواية أن توافق رسم المصحف ولو موافقة غير صريحة نحو مالك يوم الدين لأنه رسم فى جميع المصاحف بحذف الألف من كلمة مالك - وذكر أيضا أن القراءة قد تكون ثابتة فى بعضها دون بعض كقراءة ابن عامر (قالوا اتخذ الله ولدا) من سورة البقرة بغير واو (آية ١١٦).

(مناهل العرفان جـ١ ص٤١٨ والقراءات الأربع عشر للبناء ص١٤٦).

(٣) الإتقان للسيوطى جـ١ ص٨١.

(٤) غيث النفع فى القراءات العشر للنورى ص ٢٥، ص٣٦.

(٥) القراءات الأربع عشر للبناء ص١٣٥.

ثانيا : القراءة المشهورة:

وهذه درجة ثانية بعد المتواترة.

«وهى ماصحَّ سندها بأن رواها العدل الضابط عن مثله ووافقت العربية ووافقت أحد المصاحف العثمانية سواء أكان عن الأئمة السبعة أم العشرة أم غيرهم واشتهر عند القراء فلم يعدّوه من الغلط ولامن الشذوذ إلا أنها لم تبلغ درجة المتواتر، ومثاله ما اختلفت الطرق فى نقله عن السبعة فرواه بعض الرواة عنهم دون بعض»[1] ـ ومثال ذلك قوله تعالى: **﴿وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا﴾** الإسراء ١٣.

ففى قوله : «نخرج» ثلاث قراءات بالياء والنون:

١ ـ «فأبو جعفر بالياء المثناه من تحت مضمومة وفتح الراء مبنيا للمفعول ونائب الفاعل ضمير الطائر.

٢ ـ وقرأ يعقوب بفتح الياء وضم الراء مضارع خرج ووافقه ابن محيصن والحسن والفاعل ضمير الطائر أيضا.

٣ ـ والباقون بنون العظمة وكسر الراء اتفقوا على نصب كتابا على المفعول به فى الأخيرة وعلى الحال فى السابقتين.

وفى «يُلقَّاه» قراءتان:

١ ـ فابن عامر وأبو جعفر بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف مضارع لقى بالتشديد.

٢ ـ والباقون بالفتح والسكون والتخفيف مضارع لَقِيَ»[2] .

ومن هذه القراءات نرى احتمال رسم المصحف لها وموافقة العربية مع صحة السند.

---

(١) مناهل العرفان للزرقانى جـ١ ص٤٣٠.

(٢) القراءات الأربع عشر للبناء ص٢٨٢.

وهذه القراءات المشهورة تأخذ حكم التواتر فى وجوب قبولها والعمل بمقتضاها والتعبـد بها مادامت صحـيحة السند بأن رواها العدل الضابـط عن مثله ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولم يعترض عليها قارىء.

ثالثا: القراءات الآحادية:

وهذه هى الدرجة الثالثة فى القراءات.

وهى ماصح سندها وخالفت الرسم أو العربية أو لم تشتهر الاشتهار المذكور، وهذا النوع لايقرأ به ولايجب اعتـقاده: من ذلك قراءة ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾[1] بفتح الفاء [2]ولايتعبد بأمثال هذه القراءات.

رابعا: القراءات الشاذة:

يقول السيوطى: «وهو مالم يصح سنده كـقراءة ابن السَّمَيْقع: «فاليوم نُنَحيك ببدَنك» بالحـاء المهملة ﴿لتـكون لمن خَلَفَـك آية﴾[3] ـ بفـتح اللام مـن كلمـة (خَلْفَك)[4]؛ وهذا أيضا لايجوز التعبد به أو قراءته.

خامسا: القراءات التفسيرية:

«أو المدرجة مثل ماروى من قـراءة سعد بن أبى وقاص ﴿وله أخ أو أخت من أم﴾ النساء ١٢.

وماروى من قراءة ابن عباس: ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فى موسم الحج﴾ البقرة ١٩٨.

وهاتان القراءتان للتفسير وفيهما زيادتان على النص لاوجود لهما فى المصحف العثمانى»[5].

---

(١) آية ١٢٨ التوبة.

(٢) مناهل العرفان جـ١ ص ٤٣٠.

(٣) من الآية ٩٢ يونس.

(٤) الإتقان للسيوطى جـ ١ ص ٧٧.

(٥) الإتقان للسيوطى جـ١ ص ٧٧.

وهذا النوع كـذلك لايجوز اعـتقـاده ولايتـعبَّد بتـلاوته، وسنرى أن له بعض الفائدة في معاني الآية والاسـتدلال بها، واختلاف الآراء الفقـهية بصددها، وربما اعتبرها البعض قراءات منسوخة فلا يُعتد بها.

وجوه الحكمة فى تعدد القراءات

اقتـضت حكمة العلىّ الأعـلى أن ينزل القرآن بلسـان عربى مُبين بلسـان قوم الرسول النبى العربى المبين ﷺ كما قال تعالي: ﴿**وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه، ليبيّن لهم**﴾[1] وليُوضح لهم فيفهـموا ويعْملوا. وأذن الله لرسوله الكريم صلوات ربى وتسليماته عليـه بقراءة القرآن بالقراءات المعتمـدة لحِكم عديدة نُبيّنها فيما يلى:

١ ـ «التهوين والتسهيل والتخفيف على الأمة»[2] .

فنحن نعلم أن العرب كانوا يختلفون فى طريقـة الأداء بحيث لا تتمكن القبيلة من قراءة لم يتعود عليـها لسانها والله تعالت رحمتـه وحكمته يقول: ﴿**يُريد الله بكم اليسر ولايريـد بكم العسر**﴾[3] ، كما يقول سبحانه: ﴿**يريد الله أن يخـفف عنكم**﴾[4] ـ فمن مقاصد التشريع التخفيف.

ومن هذه الحكم:

٢ ـ« **اختلاف القراءات يُظهـر الاختلاف فى الأحكام**»[5] ـ مع الإعجـاز فى الإيجاز اللفظى لكون الكلمة الواحدة بمنزلة كلمتين أو أكثر.

ومن هذا ما اختلف فيـه الفقهاء فى مسألة نقض وضـوء الملموس وعدمه على اختلاف القراءة فى لمستم ولامستم.

قال البناء «بالألف أى ما سستم بشرة النساء وقيل جامعتموهن»[6] .

واللمس باليد، فعلى اللمس لانقض وعلى المس ينتقض الوضوء.

---

(١) من الآية ٤ إبراهيم.

(٢) الإتقان للسيوطى جـ١ ص٨٢.

(٣) من الآية ١٨٥ البقرة.

(٤) من الآية ٢٨ النساء.

(٥) الإتقان للسيوطى جـ١ ص٨٢.

(٦) القراءات للبناء ص١٩١ «واختلف فى لمستم هنا والمائدة فحمزة والكسائى وخلف بغير ألف فيهما ووافقهم الأعمش والباقون بالألف بالألف فيهما».

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين﴾ المائدة ٦، «ففى أرجلكم الفتح والكسر فعلى الفتح المراد الغسل وعلى الكسر المسح على الكعبين والمسح على الخُفَّين كذلك»[1] :

والمسألة هنا جواز المسح على القدمين للمقيم يوم وليلة بعد بداية الغسل أول وضوء وللمسافر ثلاثة أيام بِلَيالِيهن.

ومن أمثلة اختلاف الحكم الفقهى بتعدد القراءة ماهو معروف «من جواز وطء الحائض عند انقطاع الدم قبل الغسل وعدمه على الاختلاف فى يطهرن[2] . فعلى قراءة التشديد يلزم الغسل بعد انقطاع الدم أما قراءة التخفيف فتفيد الجواز ـ (يعنى جواز الوطء) ـ بمجرد انقطاع الدم عنهن وقبل الاغتسال.

وطالما أن القراءتين الواردتين متواترتان فلا تفضيل لأحدهما عن الأخرى فيجوز هذا ويجوز ذاك، ولكنه من الواجب على المرأة بصفة عامة ألا تؤخر غسل الجنابة سواء من حيض أو نفاس أو جماع حتى تواظب على الصلوات فى أوقاتها.

٣ ـ ومن هذا اختلاف المعنى باختلاف القراءة كما فى قوله تعالى: ﴿وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته﴾ الأعراف ٥٧، فقد قرئت (بشرا) بأربعة أوجه:

---

(١) ذكر البناء فى القراءات الأربع عشر ص ١٩٨.

«واختلفوا فى (وارجلكم)، فنافع وغيره بنصب اللام عطفا على أيديكم فإن حكمها الغسل كالوجه، وعن الحسن بالرفع على الابتداء والخبر محذوف أى مغسولة، والباقون بالخفض عطفا على رؤوسكم لفظا ومعنى ثم نسخ بوجوب الغسل (لأنه لا تعارض بين أحكام الشارع إذا امكن التأويل أو التخصيص)- أو يحمل المسح على بعض الأحوال وهولبس الخف الخ.

(٢) جاء فى القراءات الأربع عشر للبناء ص١٥٧ «واختلف (فى يطهرن) فأبو بكر وحمزة والكسائى وخلف بفتح الطاء والهاء مشددتين مضارع تطهر اغتسل والأصل يتطهرن كقراءة أبىّ وابن مسعود والباقون بسكون الطاء وضم الهاء مُخَفَفة مضارع طهرت المرأة شفيت من الحيض واغتسلت».

(أ) بُشْرا : بالياء المضمومة والشين الساكنة جمع بشير.

(ب) نُشْرا: بالنون المضمومة والشين الساكنة جمع ناشر.

(جـ) نَشْراً: بالنون المفتوحة والشين الساكنة بمعنى منشورة أى متفرقة.

(د) نُشُراً: بالنون والشين المضمومتان وهى مفردة جمع نشر بفتح فسكون»[1].

وهذا يدل كذلك على الإعجاز فى الإيجاز اللفظى فتنوع القراءات بمنزلة تنوع الآيات.

٤ ـ ومن حكم اختلاف القراءات «إظهار سرّ الله تعالى فى كتابه وصيانته له عن التبديل والاختلاف والاضطراب مع كونه على هذه الأوجه الكثيرة»[2]، فسبحان من حفظ كتابه وقراءاته عن العبث والتغيير وعن التناقض رغم ما احتوى من كثرة تشريعاته وقضاياه وسبحان القائل: ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾[3] لوجدوا فيه تضاربا وتناقضا كثيرا.

٥ ـ ومن وجوه الحكمة فى تعدد القراءات كما ذكره السيوطى: إظهار فضل الأمة الإسلامية وشرفها ومكانة لغتها على غيرها من الأمم واللغات حيث لم ينزل كتاب من السماء بأكثر من قراءة غير القرآن الكريم»[4] ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾[5] فهو صاحب المنة وصاحب النعمة والعلم والحكمة يهبها لمن يشاء.

---

(١) جاء فى القراءات الأربع عشر للبناء ص ٢٢٦ واختلف فى (نشرا) هنا والفرقان والنمل فقرأ عاصم بالباء الموحدة المضمومة وإسكان الشين فى الثلاثة جمع بشير كنذير ونذر، وقرأ ابن عامر بالنون مضمومة وإسكان الشين وهى مخففة من قراءة الضم وقرأ حمزة والكسائى وخلف بالنون المفتوحة وسكون الشين مصدر واقع موقع الحال بمعنى ناشرة أو منشورة أو ذات نشر، وقرأ نافع وغيره بضم النون والشين جمع ناشر كنازل ونزل.

(٢) الإتقان للسيوطى جـ١ ص٨٢.

(٣) آية ٨٢ النساء.

(٤) الإتقان لسيوطى جـ١ ص ٨٢ بتصرف وتوضيح.

(٥) آية ٤ الجمعة.

٦ ـ ومن حكم تعدد القـراءات كذلك إعظام أجـر علماء هذه الأمة مـن حيث إنهم يُفرغـون جهدهم فى تحقـيق الكتاب وضبطه لَفْظَة لفظة حتى مـقادير المدّات وتفاوت الإمالات وتتبع معانى ذلك واستنباط الحِكَم والأحكام من دِلالة كل لفظ وإمعانهم الكشف عن التوجـيه والتعليل والترجيح»[1] ـ مما يؤكد لـنا صدق هذا الكتاب المنزل وصدق ما يخبر به وأنه الفصل ليس بالهزل.

٧ ـ كذلك من حِكَم تعدد القراءات بيان تفسير اللفظ بالقراءة غير المتواترة مثل قراءة فامضوا إلى ذكر الله تبين أن المراد بقراءة ﴿فاسعوا إلى ذكر الله﴾[2] الذهاب لا المشى السريع.

كذلك نرى أن المقـصد من القـراءة الشاذة تفـسير القـراءة المشهـورة وتوضيح معانيها كقراءة عائشة وحفصة ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى﴾[3] ،

صلاة العصر، وقراءة ابن مسعود والسارق والسارقة فاقطعوا أيمانهما[4] تفسيرا لأيديهما [5]، فالقطع لليد اليمنى التى سرقت.

وقد يختلف بعض الفقهاء فى تفسير أمثال بعض هذه الآيات فى حال احتمال ورود ناسخ لها وتمشـيا مع ترجيح المصلحة كـقراءة ﴿فمن لم يجد فـصيام ثلاثة أيام﴾[6]. متتابعات بزيادة متتابعات فى كـفارة حلف اليمين فالجمهور لايشترطون التتابع فى الصيام.

---

(١) الإتقان للسـيوطى جـ١ ص ٨٢.
(٢) من الآية ٩ الجمعة.
(٣) من الآية ٢٣٨ البقرة.
(٤) من الآية ٣٨ المائدة.
(٥) الإتقان للسيوطى جـ١ ص٨٢.
(٦) من الآية ٨٩ المائدة.

المبحث العاشر

إعجاز القرآن وما يتعلق به

معجزات الأنبياء السابقين كانت حسية ملموسة نابعة من طبيعة البيئة التى كانوا فيها، وذلك مثل عصا موسى حين انتشر السحر والسحرة، ومعجزة عيسى فى إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص عندما انتشر الطب فى عصره، وأيَّد الله نبيه محمدا صلوات ربى وسلامه عليه بمعجزة عقلية خالدة باقية على صفحات الدهر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، كما فى حديث المصطفى ﷺ:

«ما من الأنبياء نبى إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلىّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»[1] .

وهو يقصد أن كل نبى قد أيده الله بمعجزة تصديقا لنبوته حتى يعلم قومه أنه مُرْسل من عند الله تعالى .

وقد أيد الله، رسوله محمدا ﷺ بمعجزة القرآن إلى أن تقوم الساعة ولعلهم أن يكونوا أكثر الأمم إيمانا وتصديقا برسولهم من سابقيهم.

تعريف الإعجاز: ونوعيه حسي وعقلي:

الإعجاز: يعنى إثبات العجز، والعجز اسم للقصور عن فعل الشىء وهو ضد القدرة.

وفى الإتقان: «المعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدى لاتقهر بالمعارضة وهى إما حسية وإما عقلية»[2] .

---

(١) صحيح البخارى جـ٤ ص ١٩٠٥- ٦٩ ـ كتاب فضائل القرآن ١- باب كيف نزول الوحى ٤٦٩٦ عن أبى هريرة.

(٢) الإتقان للسيوطى جـ٢ ص ١١٦ .

فالمعجزة على هذا شيء مخالف وشاذ وليس مألوفا للناس جعلها الله سبحانه تحديا للمعارضين، سواء أكان هذا الشيء أو الأمر مُجَسّما ملموسا محسوسا أو كان معنويا وعقليا وفكريا.

وفي هذا يقول الزرقاني: «إعجاز القرآن مركب إضافي معناه إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بما تحداهم به، فهو من إضافة المصدر لفاعله، والمفعول محذوف للعلم به»[1] .

والتقدير: إعجاز القرآن خَلْقَ الله عن الإتيان بما تحداهم به، والمراد بالتعجيز المذكور إظهار أن هذا الكتاب حق وأن الرسول الذى جاء به رسول صدق، وكذلك الشأن فى كل معجزات الأنبياء السابقين المقصود بها التدليل على أنهم صادقون فيما يبلغون به عن الإله القادر، الذى أرسل الرسل لإسعاد بنى البشر فيما فيه صلاحهم فى دنياهم وأخراهم، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

إثبات الإعجاز:

تحدى الرسول ﷺ العرب بالقرآن على مراحل ثلاث:

(١) تحداهم بالقرآن كله على أن يأتوا بمثله فما استطاعوا إلى ذلك سبيلا بقوله سبحانه: ﴿**قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا**﴾[2] ،أى عونا ونصيرا والله غالب على أمره - فأنى للمخلوقين أن يتعالوا على خالقهم جل فى علاه.

(ب) ثم تحداهم بعشر سور منه فى قوله تعالى ﴿**أم يقولون افتراه، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله**﴾[3] - فعجزوا وخاب ظنهم وسُقِطَ فى أيديهم.

---

(١) مناهل العرفان للزرقانى جـ٢ ص ٣٣١.

(٢) الآية ٨٨ الإسراء.

(٣) الآيات ١٣، ١٤ هود.

(جـ) ثم تحداهم بسورة واحدة منه فى قوله **﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله﴾**[1] ، يعنى قوله فهاتوا سورة من سورة وكرر هذا التحدى فى قوله : **﴿وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة﴾**[2] .

فقد ألجمهم القرآن الحجة فسُقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضَلُّوا، قل فلله الحجة البالغة سبحانه وتعالى عما يقولون علوّاً كبيرا.

والقول الحق أنهم لم يجدوا مسلكا لمحاكاته أو منفذا لمعارضته، بل إنهم تخبَّطوا، فعدلوا إلى العناد تارة وإلى الاستهزاء أخرى فتارة قالوا سحر وتارة قالوا شعر وتارة قالوا أساطير الأولين ـ فهى تملى عليه بكرة وأصيلا آناء الليل وأطراف النهار. **﴿قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين﴾**[3]، أى قل لهم يا محمد (ﷺ) قل نزله جبريل الأمين من عند أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين.

وكان ما يحتويه القرآن الكريم من نواحى الإعجاز يفوق كل معجزة كونية سابقة ويُغْنى عنها جميعا **﴿وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مُبين، أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يُتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾**[4] ـ ويُقصد بالآيات: المعجزات.

وجوه إعجاز القرآن الكريم:

١ ـ إعجازه فى جزالته وفصاحته وبلاغة أسلوبه وعذوبة لفظه وطلاوته وحلاوته وبيانه الرائع الخلاّب ونسجه المحكم البديع بما فيه من محسنات ـ فالحرف فى موضعه واللفظة فى رصفها تُؤدى معناها فى تماسك الكلمة، والكلمة

---

(١) من الآية ٣٨ يونس

(٢) آية ٢٣ وجزء ٢٤ البقرة.

(٣) آية ١٠٢ النحل.

(٤) الآيات ٥٠, ٥١ العنكبوت.

فى موضعها تؤدى دورها فى تماسك الجملة ولو أبدل حرف بآخر أو كلمة بأخرى زيادة أو نقصاً بما لم يكن قراءة لاختل النظم والرصف فتعالت قدرته وحكمته.

ونظامه الصوتى البديع بجَرْسِ حروفه وحركاتها وسكناتها ومَدّاتها وغُنّاتها وفواصلها ومقاطعها مماً يشنّف الآذان والأسماع ويطرب له الفؤاد ويطلب منه المزيد، فهو يزداد روعة فى أذن قارئيه وسامعيه لا يَملُّونه ـ على النقيض من كلام البشر الذى يصححه كاتبه ويُنقحه المرة تِلْو المرة والكرة تلو الكرة، ولكنه لايصل فى رونقه وجزالته إلى عُشْرِ معْشار كلام رب العالمين.

٢ ـ **وهو معجز بمعانيه وعلومه ومعارفه** التى أثبت العلم الحديث كثيرا من حقائقها المغيّبة ومن ذلك قوله سبحانه: **﴿ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾**[(١)] ومن ذلك الكهرباء مثلا ففيها السالب والموجب.

وفى قوله تعالى: **﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون﴾**[(٢)]من سائر وسائل النقل الحديثة كالطائرات ومركبات الفضاء وغيرها.

٣ ـ **وهو معجز فى تشريعاته:** التى تشعبت وتعددت بدون ما تناقض بينها وصيانته لحقوق الإنسان بما يتناسب مع كل زمان ومكان، وتكوين مجتمع مثالى صيَّر العرب الذين كانوا رعاة الشاة والغنم ساسة شعوب وقادة أمم **﴿والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم﴾**[(٣)] فهو يمنّ بفضله على من يريد.

٤ ـ وهو معجز بما يرشد إليه من مناهج فى العبادة والتحليل والتحريم والخُلق القويم الكريم بمافيه من إرشاد إلى محاسنها والزجر عن مساويها والأمر بكل مافيه من معروف والنهى عن كل مافيه منكر.

ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور جميعا، والجمع بين أشتاتها حتى تنتظم وتتسق أمر تعجز عنه قوى البشر ولاتبلغه قدرتهم فعجز الخلق جميعا عن

---

(١) الآية ٤٩ الذاريات.

(٢) الآية ٨ النحل.

(٣) من الآية ٢٤٧ البقرة.

معارضتهٔ بمثله ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾[1] ـ لوجدوا فيه تضاربا وتناقضا.

٥ ـ وهو معجز كـذلك بما اشتمل على أخبار كثيرة من الغيوب: ﴿قل لايعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله﴾[2] فهو وحده سبحانه علام الغيوب ولايعقل أن يكون نابعا من نفس بشر بل هو كلام علام الغيوب وقيوم الوجود ﴿وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو﴾[3] فعلمها عند ربى فى كتاب لايضل ربى ولا ينسى .

(أ) من ذلك قصص عن الماضى البعيد الضارب بجذوره فى أعماق التاريخ كقصة نوح عليه السلام والتى قال سبحانه في ختامها : ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ماكنت تعلمها أنت ولاقومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾[4] فهو سبحانهُ ينجِّي الذين اتقوا بمفَازَتهم فى الدنيا ويوم الدين بإيمانهم بالغيب وبربهم وبرسله وشريعته فهذه هى العقيدة الصادقة المنجية.

(ب) وما يخبر به القرآن من غيب الحاضر وهو كل ما غاب عن حواسنا وعن إدراكنا كوجود الله وملائكته والجنّ وما فى الآخرة من نعيم وعذاب.

يقول تعالي: ﴿كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله﴾[5] فجميع المؤمنين يصدقون بهذه العوالم. ويقول سبحانه : ﴿والجان خلقناه من قبل من نار السموم﴾[6] يعنى «من لهب النار أو من أحسن النار أو من نار الشمس»[7] بكيفية يعلمها الله سبحانه.

ويقول فى شأن الجنة ونعيمها: ﴿وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون

---

(١) من الآية ٨٢ النساء.

(٢) من الآية ٦٥ النمل.

(٣) من الآية ٥٩ الأنعام.

(٤) الآية ٤٧ هود.

(٥) من الآية ٢٨٥ البقرة.

(٦) الآية ٢٧ الحجر.

(٧) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٥٥٠.

لكم فيهـا فاكهة كثيرة منها تأكلون﴾ [1] وتلكم الجنة الموصوفة بهـذه الصفات الجليلة أعطيتموها بسـبب أعمالكم الصالحة التى قدمتموها فـى الدنيا ، فأعمالهم الصالحة كـانت سببا لشـمول رحمة الله إياكم فلا يدخل أحـد الجنة بعمله ولكن برحمـة الله وفضله وإنما الدرجات يُنال تفاوتهـا بحسب صالحات الأعـمال ولكل درجـات مما عملوا. وأن وعـده بالجنة آت لاريب فيـه: ﴿جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتيا﴾[2] ـ فهو لا يَتـخلَّف ، وبخصوص النار وعذابها: ﴿وأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق﴾[3] وهو إخراج النَفَس وردِّه بشدة كشهيق الحمير[4] .

(جـ) ومن مظاهر إعجاز القرآن ما أخبر به من غيب المستقبل:

فهو سبحانه علام الغيوب.

قال تعالي: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾[5] يعنى سيهربون ـ فى شأن الجمع من الكفار الذى احتشد لغـزوة بدر الكبرى ـ وكانت هذه الآية قد نزلت فى مكة قبل الهجرة ولم يكن المسلمون ليعرفوا معناها آنذاك.

ومنها كذلك إخباره عن الروم بأنهم سينتصرون فى بضع سنين من إعلان هذا النبأ يقول الله تعـالى فيه: ﴿غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعـد غلبـهم سيغلبون فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيـم وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لايعلمون﴾[6].

ولفظ بضع سنين أحاط النبوءة بسياج من الدقة والحكمة لأن البضع من ثلاث

---

(١) الآيات ٧٢ ,٧٣ الزخرف.

(٢) الآية ٦١ مريم.

(٣) الآية ١٠٦ هود.

(٤) تفسير الطبرى جـ١٢ ص ١١٧.

(٥) الآية ٤٥ القمر.

(٦) الآيات من ٢ إلى ٦ سورة الروم.

إلى تسع سنين والناس يختلفون فى حساب الأشهر والسنين منهم من يحسبها بالشمس وغيرهم بالقمر وهكذا ومنهم من يجبر الكسر ومنهم من يلغيه[1].

والإيمان بالغيب الذى ذكره سبحانه فى مطلع سورة البقرة ﴿ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب﴾[2] ذلك الإيمان هو أساس العقيدة وأساس الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وهو أساس الفلاح.

القدر المعجز من القرآن:

وهل المعجز هو القرآن كله أم أن أى آية يمكن أن تكون معجزة.

١ ـ «منهم من قال وهم المعتزلة بأن المعجز هو كل القرآن»[3] .

وهذا رأى مرجوح لأن الله تعالى تَدرّج بتحديهم على أن يأتوا بمثل هذا القرآن فلم ولن يستطيعوا أن يأتوا بمثله فقال سبحانه: **﴿أم يقولون تقوله؟ بل لايؤمنون فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾**[4] ثم ألجمهم المولى عز وجل الحجة بقوله **﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾**[5]: يعنى سندا وعونا.

ثم تدرج بهم بعدها بقوله **﴿أم يقولن افتراه؟ قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون﴾**[6] .

فلما عجزوا طاولهم مرة أخرى بقولة **﴿وإن كنتم فى ريب مما نَزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة﴾**[7].

---

(١) مناهل العرفان جـ٢ من ص ٣٦٧ إلى ص ٣٧٠.

(٢) من الآيات ٢، ٣ البقرة.

(٣) مناهل العرفا ن جـ٢ ص ٣٣٢.

(٤) آيات ٣٣، ٣٤ الطور.

(٥) آية ٨٥ الإسراء.

(٦) آيات ١٣، ١٤ هود. .

(٧) الآيات ٢٣، ٢٤ من سورة البقرة.

فكان عجزهـم بعد ذلك أشنع وأبشع وسجّل عليهم الهـزيمة أبد الدهر وظهر أمرالله وهم كارهون.

لهذا يرى صاحب مناهل العرفان أن القدر المعجز من القرآن هو ما يُقَدّر بأقصر سورة منه، وأن الرأى القائل بأن المعجز كل مـايصدق عليه أنه قرآن ولو كان أقل من سورة هو فى نظره بمنأى عن الصواب[1] .

ولكننا نرى أن الإعـجاز قـد يتحقق بأقل من سـورة فى الآيات الطوال التى تشتمل على معنى أو معان متكاملـة فهذا لايمنع من أنها تكونُ معجزة والله أعلم بالصواب.

---

(١) مناهل العرفان جـ٢ ص ٣٣٣، ص٣٣٤، والبرهان للزركشى جـ٢ ص١١٠.

المبحث الحادى عشر
التفسير والتأويل

أولا: التعريف بالتفسير لغة:

١ ـ التفسير هو البيان والكشف والإيضاح، والإفصاح وإظهار المعنى المعقول، يقال: فسّرت الشيء أفسره تفسيرا، وفسرته أفسره فسرا [(١)] ـ يعنى وضحته توضيحا وبينته بيانا.

يقول تعالى: ﴿ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا﴾[(٢)]ـ أى أحسن بيانا وتوضيحا وتفصيلا.

٢ـ يقول الراغب: «والتفسير قد يقال فيما يختص بمفردات الألفاظ وغريبها وفيما يختص بالتأويل ولهذا يقال: تفسير الرؤيا وتأويلها»[(٣)] ـ يعنى معرفة ما توحى إليه وما تَدُلّ عليه.

ثانياً: معنى التفسير اصطلاحا:

وكما أشار إليه السيوطى:

أن التفسير علم يفهم به كتاب الله تعالى المنزل على نبيه ﷺ وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ[(٤)] ـ وما شابه ذلك من علوم تساعد على فهم كتاب ربنا العزيز وتوضيحه ومعرفة أسراره لنكون على بينة منه.

وبتعبير آخر :

---

(١) البرهان جـ ٢ ص ١٤٩ والإتقان جـ ٢ ص ١٧٣.

(٢) آية ٣٣ الفرقان.

(٣) مفردات الراغب ص ٣٩٤.

(٤) الإتقان للسيوطى جـ ٢ ص ١٧٤.

التفسير اصطلاحا هو علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية وبقدر ما علمنا الله سبحانه من لدنه علماً .

ويذكر الزرقاني:

والمراد بكلمة علم المعارف التصورية لأن المقصود منه تصور معانى ألفاظه.

وخرج بقولنا: **يبحث فيه عن أحوال القرآن**، العلوم الباحثة عن أحوال غيره.

وخرج بقولنا **من حيث دلالته على مراد الله تعالى**: العلوم التى تبحث عن أحوال القرآن من جهة غير جهة دلالة معناه كعلم القراءات مثلا فإنه يبحث عن أحوال القرآن من حيث ضبط ألفاظه وكيفية أدائها وهكذا.

وقولنا بقدر الطاقة البشرية: لبيان أنه لا يقدح فى العلم بالتفسير عدم العلم الدقيق بمعانى المتشابهات ولا عدم العلم بمراد الله تعالى فى الواقع ونفس الأمر[1] وفوق كل ذى علم عليم، وسبحانك ربنا لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم فأنت قد وسعت كل شىء علما.

ثالثاً: معني التأويل لغة واصطلاحا والفرق بينه وبين التفسير:

(١) معنى التأويل لغة مع ضرب الأمثال:

قال الراغب: «**التأويل من الأول أى الرجوع إلى الأصل**»[2] لتوضيح الأمر .

وقيل «**أوّل الكلام تأويلا وتأوله: دبّره وقدره وفسّره**»[3] وجاهد فى فهم مقصوده وتوضيح حقيقته.

وفى قوله سبحانه : ﴿**هل ينظرون إلا تأويله**﴾[4] أى بيانه الذى هو غايته المقصودة منه لنقف على دقائقه.

وفى قوله تعالى: ﴿**ذلك خير وأحسن تأويلا**﴾[5] ـ يعنى أحسن معنى وترجمة وأيضاً

---

(١) مناهل العرفان جـ ٢ ص ٣ بتصرف .

(٢) مفردات الراغب ص ٢٧.

(٣) مناهل العرفان جـ ٢ ص ٥ .

(٤) من الآية ٥٣ الأعراف.

(٥) من الآية ٣٥ الإسراء.

أحسن عاقبة وثوابا والله عنده حسن الثواب لمن تاب وأناب.

ويقول الزركشى «وفى قوله جل شأنه ﴿يوم يأتى تأويله﴾[(1)] أى تكشف عاقبته ويقال آل الأمر إلى كذا يعنى صار إليه وأصله من المآل أى العاقبة والمصير»[(2)] والجزاء الوفاق الذى أعده سبحانه يوم الدين يوم يقوم الناس لرب العالمين.

(ب) أما التأويل في اصطلاح المفسرين:

فإنه يختلف معناه فبعضهم يرى أنه مرادف للتفسير وعلى هذا فالنسبة بينهما التساوى ويشيع هذا المعنى عند المتقدمين من الرعيل الأول فيذكر الزرقانى: «ومنه قول مجاهد: إن العلماء يعلمون تأويله يعنى القرآن الكريم - وقول ابن جرير فى تفسيره: القول فى تأويل قوله تعالى كذا.. «واختلف أهل التأويل فى هذه الآية..»[(3)] يعنى فى معناها ومقصودها وهكذا.

(جـ) الفرق بين التفسير والتأويل:

يذكر الزركشى أن: «التفسير راجع إلى معنى الإظهار والكشف، وأما التأويل: فمعنى قولهم ما تأويل هذا الكلام أى إلام تؤول العاقبة فى المراد به؟»[(4)] يعنى ما القصد من وراء هذا الكلام بصيغة أخرى.

وبعضهم يرى فى التفسير أنه يخالف التأويل بالعموم والخصوص فقط، ويجعل التفسير أعم مطلقا وكأنه يريد من التأويل بيان مدلول اللفظ بغير المتبادر منه لدليل، ويريد من «التفسير بيان مدلول اللفظ مطلقا أعم من أن يكون بالمتبادر أو بغير المتبادر»[(5)].

والقصد من ذلك أنه يؤول الآية بأن يصرفها عن المعنى الظاهر إلى معنى آخر خفى لدلائل ترجّحت عنده يحتملها النص.

---

(١) من الآية ٣٥ الأعراف.

(٢) البرهان للزركشى جـ ٢ ص ١٤٨.

(٣) مناهل العرفان للزرقانى جـ ٢ ص ٥.

(٤) البرهان للزركشى جـ ٢ ص ١٤٦ بتصرف.

(٥) مناهل العرفان جـ٢ ص ٥.

ويرى الماتريدي: وبعض آخر يرى أن التفسير مُبَاين للتأويل فالتفسير فى نظرهم هو القطع بأن مراد الله كذا، والتأويل ترجيح أحد المحتملات بدون قطع، وعند آخرين أن التفسير هو بيان للمعانى التى تُستفاد من وضع العبارة، والتأويل هو بيان المعانى التى تستفاد بطريق الإشارة، وبمنطق آخر فإن التأويل معان قدسية ومعارف ربّانية تَنْهلّ من سحب الغيب على قلوب العارفين والتفسير غير ذلك [1].

كأنه يعنى أن التأويل خواطر عالية من لدن عليم خبير فهو جلّ فى علاه ﴿يؤت الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾[2] فهو سبحانه يلهم الفهم السليم لمن يشاء. والله تبارك وتعالى أعلم بالصواب.

رابعاً: التفسير تفسيران:

النوع الأول:

ففيما يذكره الزرقانى: «تفسير جاف لا يتجاوز معرفة معانى الألفاظ وإعراب بعض الجمل وما فى النظم من بلاغة، وهذا النوع أقرب إلى التطبيقات العربية منه إلى التفسير وبيان مراد الله من هداياته للناس»[3] ليتعظوا وليعملوا بفحواها.

ولا يجب أن نكتفى بهذا وحسب، فالحاجة تدعونا إلى أن نغوص فى عمق أعماق معانى الذكر الحكيم لنهتدى بهداها.

النوع الثاني:

«وهو تفسير يجاوز هذه الحدود، ويجعل هدفه الأعلى تجلية هدايات القرآن وتعاليمه وحكمة الله فيما شرع للناس بما يساير حاجات العصر ومتطلباته على وجه يجتذب الأرواح ويفتح القلوب ويدفع النفوس إلى الاهتداء بهدى الله وهذا هو الخليق باسم التفسير» [4] بحق وصدق ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده.

---

(١) مناهل العرفان جـ ٢ ص ٥ .

(٢) آية ٢٦٩ البقرة.

(٣) مناهل العرفان جـ ٢ ص ٦ .

(٤) مناهل العرفان جـ ٢ ص ٦ .

وما أحوجنا إلى مثل هذا التفسير الذى يساير مطالب العصر ويضع الحلول لمشكلات الناس على طريق الهداية والنور فالحياة دائما فى تطور.

خامسا: شرف التفسير والحاجة إليه:

١ ـ والتفسير من أجل علوم الشريعة وأرفعها قدرا والحاجة ماسة إليه لأن موضوعه كلام الله تعالى الذى هو ينبوع كل حِكمة ومعدن كل فضيلة .

وقد سئل ابن عباس عن قوله تعالى﴿يؤت الحكمة من يشاء﴾[1] ـ فقال: المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه وأمثاله، يقول تعالى: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾[2]،[3]، الذين فتح الله عليهم من فيوضات أنوراه، ومن تجلياته ونفحاته ومن كنوز أسراره.

٢ـ وحيث إن نهضة الأفراد والأمم لا يمكن أن تكون صحيحة عن تجربة ولا سهلة متيسرة إلا عن طريق الاسترشاد بتعاليم القرآن والاعتصام بحبله المتين وبعروته الوثقى التى لا انفصام لها وبنُظمه الحكيمة التى رُوعِيت فيها جميع عناصر السعادة الحقيقة للنوع البشرى فى العاجل والآجل على ما أحاط به علم خالقه الحكيم.

وبدهى أن العمل بهذه التعاليم لا يكون إلا بعد فهم القرآن الكريم وتدبُّره والوقوف على ما حوى من نصح ورشد والإلمام بمبادئه والتى فيها كلّ كمال دينى ودنيوى والتى يحملها أسلوب الوحى الإلهى البارع المعجز، وذاك لا يتحقق إلا عن طريق الكشف والبيان لما تدل عليه ألفاظ القرآن وهو ما نسميه بعلم التفسير.

فالتفسير هومفتاح هذه الكنوز والذخائر التى احتواها هذا الكتاب المجيد النازل لإصلاح البشر وإنقاذ الناس وإعزاز العالم.

وبدون التفسير لا يمكن الوصول إلى هذه الكنوز والذخائر مهما بالغ الناس فى ترديد ألفاظ القرآن وتوفَّروا على قراءته.

---

(١) من الآية ٢٦٩ البقرة.

(٢) آية ٤٣ العنكبوت.

(٣) الإتقان للسيوطى جـ ٢ ص ١٧٥.

فالحق سبحانه يقول: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب﴾[1] .

فهو كتاب عظيم جليل كثير الخيرات والمنافع الدينية والدنيوية، أنزلناه إليكم لتتدبروا آياته ولتتفكروا ما فيها من أسرار عجيبة وحكم جليلة ولتتعظ به أصحاب العقول السليمة والأفهام الرشيدة. فبركة القرآن العظمى إنما هى فى تدبُّره وتفهمه والجلوس إليه والاستفادة من هديه وآدابه ثم الوقوف عند أوامره ومراضيه، والبعد عن مساخطه ونواهيه ومعاصيه، ولا يعرف ذلك إلا بالتفسير.

٣ ـ قال السيوطى «وإنما احتيج إلى شروح التفاسير لأمور ثلاثة:

أحدها: كمال فضيلة المصنف فإنه لقوته العلمية يجمع المعانى الدقيقة فى اللفظ الوجيز فربما عسر فهم مراد نص الذكر الحكيم، فقصد بالشرح ظهور تلك المعانى الخفيَّة، ومن هنا كان شرح بعض الأئمة تصنيفه أدل على المراد من شرح غيره له»[2] .

ومن هنا تتفاوت الأفهام كل حسب مواهبه وبما فتح الله عليه وسبحانه وتعالى وسع كل شىء علماً.

وثانيها: «عدم ذكر بعض تتمات المسئلة أو شروط لها اعتماداً على وضوحها أو لأنها من علم آخر فيحتاج الشارح لبيان المحذوف ومراتبه»[3] ومن ثم تظهر الحاجة إلى العلوم المساعدة فى التفسير لتوضيح ذلك وبيانه.

وثالثها: احتمال اللفظ لمعان كما فى المجاز والاشتراك فيحتاج الشارح إلى بيان غرض المصنف وترجيحه»[4] ـ حتى يتم فهم مراد الشارع الحكيم.

٤ ـ والقرآن الكريم إنما نزل بلسان عربى مبين فى زمن فصاحة العرب وبلاغتهم وكانوا يعلمون ظواهره وأحكامه «أما دقائق باطنه فإنما كان يظهر لهم بعد البحث والنظر

---

(١) آية ٢٩ ص.

(٢) الإتقان للسيوطى جـ ٢ ص ١٧٤.

(٣) المرجع السابق نفس الصفحة.

(٤) المرجع السابق نفس الصفحة.

مع سؤالهم النبى ﷺ:

«ففيما رواه البخارى عن عبد الله قال لما نزلت ولم يلبسوا إيمانهم بظلم قال أصحابه وأيُّنا لم يظلم فنزلت: (إن الشرك لظلم عظيم)[1] »[2] ويعنى به الشرك الأكبر أن تجعل لله ندا ـ يعنى نظيرا ـ وهو خَلَقَكَ ورزقك.

وكقصة عدىّ بن حاتم رضى الله عنه قال:

«قلت يارسول الله ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود أهما الخيطان؟ ـ قال إنك لعريض القفا ـ (كناية عن عدم الفهم) ـ إن أبصرت الخيطين ثم قال :

لا: بل هو سواد الليل وبياض النهار»[3] وبهذا يتضح فهم الآية.

وما أحوجنا إلى ما كان الأصحاب يحتاجون إليه بل نحن أشد احتياجاً إلى التفسير منهم لقصورنا عن مدارك اللغة وأسرارها بغير تعلم أو فهم صحيح.

ومن كل ما سبق يتبين لنا أن فائدة التفسير هى التذكر والاعتبار ومعرفة هداية الله فى العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق ليفوز الأفراد والجماعات بخير العاجلة والآجلة، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

سادسا: شروط المفسر وآدابه:

(١) ذكروا للمفسر شروطا نجملها فيما يلى:

١ ـ أن يبدأ المفسر منهجه أولا بتفسير القرآن بالقرآن فما أجمِل فى مكان فقد فُسر وفُصِّل فى آخر وما اختصر فى مكان فقد بسط فى آخر، وأن يستعين المفسر كذلك بالسنة فهى شارحة للقرآن وموضحة له وأحكامه ﷺ إنما تَصدر منه عن الله ﴿**إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله**﴾[4] ـ كما أن السنة مبينَّة للكتاب كما فى قوله سبحانه: ﴿**وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون**﴾[5].

---

(١) صحيح البخارى جـ ٦ ص ٧١ أبواب التفسير الانعام.

(٢) الإتقان للسيوطى جـ ٢ ص ١٧٤.

(٣)صحيح البخارى جـ ٦ ص ٣١ أبواب التفسير البقرة.

(٤) من الآية ١٠٥ النساء.

(٥) من الآية ٤٤ النحل.

يعنى أنزلنا إليك القرآن المذكر الموقظ للقلوب الغافلة لتُعرف الناس الأحكام والحلال والحرام ولعلهم يتفكرون فى هذا القرآن فيتعظون.

وأوامر الرسولﷺ ونواهيه واجبة الطاعة كما فى قوله جل وعلا ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾[1] وقوله: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾[2]وفى هذا سعادة للبشر فى دُنياهم وأخراهم.

وقال الرسول ﷺ: «ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه»[3] يعنى السنة المباركة فهما أساس النجاح والفلاح.

فإذا لم يجد المفسر بغيته من السنة رجع إلى أقوال الصحابة فإنهم أدْرى بكتاب ربّهم لما شاهدوه من القرائن والأحوال عند نزوله ولما لهم من الفهم الثاقب. والعلم الصحيح والعمل الصالح ثم إلى أقوال التابعين كمجاهد وعكرمة وغيرهم رضوان الله تبارك وتعالى على الجميع.

٢ ـ يشترط فى المفسر كذلك صحة الاعتقاد والتجرد عن الهوى: فأى انحراف فى العقيدة تحمل ذويها على التأويل غير المستقيم كما أن الأهواء تدفع أصحابها إلى نصرة مذاهبهم كدأب طوائف القدرية والرافضة والمعتزلة ونحوهم من غلاة المذاهب.

٣ ـ العلم بالعربية وفروعها ليعرف المفسر معانى الكلمات واشتقاقاتها وخواص تركيب الكلام وألوان البديع والبيان من النواحى البلاغية، كذلك العلم بأصول العلوم المتصلة بالقرآن من أسباب النزول والناسخ والمنسوخ ومن القراءات لإفادة معان مختلفة، كذلك معرفة قواعد التوحيد حتى لا يؤول الصفات فى حق الله تبارك وتعالى تأويلا مُجانباً للصواب[4].

---

(١) من الآية ٨٠ النساء.

(٢) من الآية ٧ الحشر.

(٣) سنن ابى داود جـ ٥ ص ١٠ كتاب السنة ٦ـ باب فى لزوم السنة عن المقدام بن معد يكرب.

(٤) أنظر فى كل ذلك الإتقان للسيوطى جـ ٢ ص ١٧٧ بتصرف.

(ب) ذكروا للمفسر كذلك آدابا تتمثل في الآتي:

١ـ استقامة مقصده وحسن نيته فيجب أن يكون هدف صاحب العلوم الشرعية الخير العام وإسداء المعروف لصالح الإسلام بإخلاص لِيُسدد الله خطاه على سواء الصراط.

٢ ـ أن يكون مثالا فى الاستقامة وحسن الخلق والعمل ليكون قدوة تحتذى فالداعية كما يهدى بقوله بإذن الله يهدى بفعله.

٣ ـ وأن يتحرى الصّدق والضبط فى النقل عن تثبت ورويّة وليكون فى مأمن من التَّصْحِيف واللحن يعنى الخطأ.

المبحث الثانى عشر
المحكم والمتشابه

من حكم العلىّ الأعلى أنه أنـزل الفرقـان على عبـده ليكون للعـالمين نذيرا وهاديا وبشيرا، فرسم للخليقة العقيدة السليمة والمبادىء القويمة بآيات بينات باهرات واضحات المعالم لا غـموض فيهـا محكمات هن أسـاس الدين لتسلم لهم عقـائدهم ويتبين لهم الصراط المستـقيم وتلكم الآيات هن أم الكتاب يعنى أصله والتى لايـقع الاختلاف فى فهمها سـلامةً لوحدة الأمة وصيانة لكيانها يـقول سبحانه: ﴿كـتـاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ (١).

والمعنى أن القرآن كتاب جليل القدر، نُظِّمت آياته نظْما مُحْكما لا يلحقه تناقض ولا خلل، ثم فُصِّلت هذه الآيات يعنى بُيِّنَت فيها أمور الحلال والحرام وما يحتاج إليه العباد فى أمور المعاش والمعاد كل ذلك من عند الله فصلها وبينها الخبير العالم بكيفيات الأمور لذا كانت محكمة أحسن الإحكام ومُفَصّله أحسن التفصيل قل فلله الحجة البالغة.

وقد تأتـى هذه الأصول فى أكـثر من موضع بـالقرآن مع اختـلاف اللفظ والعـبارة والأسلوب إلا أن معناها يكون واحداً فيشبه بعـضها الآخر ويوافقه معنى دون تناقض، أما ما عدا تلك الأصول من فروع الدين فإن فى آياتها من العموم والاشتباه والخفاء فى المعنى بما يحتـاج إلى علم لإدراك بعضهـا وبما يفسح المجال أمـام الراسخين فى العلم ليردوها إلى المحكم ببناء الفروع على الأصول والجزئيات على الكليات.

أولا: التعريف بكل من المحكم والمتشابه:

(١) فى شأن المحكم: لُغة هو الواضح المعنى والصريح والمتقن.

قال الراغب: «الحكـمة إصابة الحق بالعلـم والعقل(٢)» - على أسـاس مـن العلم وميزان العقل.

---

(١) من الآية ١ هود.

(٢) مفردات الراغب ص ١٢٦.

وفى القامـوس: «أحكمت الشيء أتقنته»[1] ـ ومنعتـه عن الفسـاد والخلل «وحكمة اللجام هى التى تمنع الفرس من الاضـطراب[2] » - فينضبط قياده.

والحكيم: هو «المتقن للأمور» [3] ـ يعنى يأتى بها على الوجه الأكمل الأصح .

وفى الاصطلاح: «ما أحكمته بالأمـر والنهى وبيان الحلال والحرام» [4] ، يعنى ما ضبطه ببيان ما يصلح الشأن من أحكام بالأوامر والنواهى الشرعية.

(ب) في شأن المتشابه:

الذى تختلف فيه وجهات النظر وربما يكون غامضا غير واضح فى معناه أو دلالته.

قال الراغب: «المتشابه فى القرآن ما أشكل تفسيره لمشابهته بغيره» [5] يعنى ما التبس الأمر فى فهم معناه واختلف من شأن توضيحه وتميزه وترجيحه.

والاشتباه بغيره إما من حيث اللفظ الذى وضع له ودلالتـه أى معناه. كـأن يكون مشتركه لفظيا «كاليمين فى قوله: ﴿فراغ عليهم ضَرْبًا باليمين﴾ [6] : فهل المقصود باليـمين اليد اليـمنى أو القسم الذى كـان قد أقسـمه إبراهيم بـقوله: ﴿وتالله لأكـيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين﴾[7] أى لأكسرن أصنامكم بعد رحيلكم.

والاشتباه من حيث المعنى كأوصاف الله تعالى كقوله ﴿بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾ [8] بل هو جواد كريم سابغ الإنعام يرزق ويعطى كـما يشاء وتضييق الرزق ليس لقصور فى فيضه بل لأن إنفاقه تابع لمشيئته المبنية على الحكم.

وأوصاف القيامة وما فيها من غيب، كل هذه لايعلم حقائقها إلا الله تعالى.

ويقول الـزرقانى: «وتسـتعمل مـادة التشـابه فيـما يدل على المشـاركة فى المـائلة

---

(1) المصباح المنير جـ ١ ص ٢٢٦.

(2) البرهان للزركشى جـ ٢ ص ٦٨ .

(3) مختار الصحاح ص ١٤٨ .

(4) البرهان للزركشى جـ ٢ ص ٦٨ .

(5) المفردات للراغب ص ١٢٦ .

(6) آية ٩٣ الصافات.

(7) آية ٥٧ الأنبياء.

(8) من الآية ٦٤ المائدة.

ويقول الزرقانى: «وتستعمل مادة التشابه فيما يدل على المشاركة فى المماثلة والمشاكلة المؤدية إلى الالتباس يعنى الغموض، يقال تشابها واشتبها أى أشبه كل منهما الآخر حتى التبسا، والشُبهة بالضم الالتباس[1] » والإبهام مما يستلزم إعمال الفكر لمعرفة المقصود وتوضيحه وتبينه وتحديده.

وفى البرهان: «المتشابه أصله أن يشتبه اللفظ فى الظاهر مع اختلاف المعانى كقوله سبحانه فى وصف ثمر الجنة ﴿وأتوا به متشابها﴾ [2] أى متفق المناظر مختلف الطعوم، ويقال للغامض متشابه: مثل الحروف المقطعة أوائل السور، والمتشابه مثل المشكل لأنه اشكل أى دخل فى شكل غيره وشاكله أى صار مثله فى الشكل مع اختلاف يسير.

وقيل المشتبه الذى يشبه بعضه بعضا»[3] يعنى صار شكله.

ثانياً: معنى أن القرآن كله محكم وأن كله متشابه وأن بعضه محكم وآخر مشابه:

ولقد جاء فى القرآن الكريم ما يدل على أنه كله محكم إذ قال سبحانه: ﴿كتاب أحكمت آياته﴾[4] اتت على وجه لا يتطرأ إليه خلل أو فساد.

وجاء فيه ما يدل على أنه كله متشابه بقوله تعالى: ﴿الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها﴾[5] قرآنا متشابها يشبه بعضه بعضا فى الفصاحة والبلاغة والتناسب بدون تعارض ولا تناقض.

وجاء فيه ما يدل على أن بعضه محكم وبعضه متشابه فقال جل ذكره: ﴿هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات﴾[6] أنزل على رسوله ﷺ القرآن فيه آيات بينات واضحات الدلالة لا غموض فيها كآيات الحلال والحرام هن أصل الكتاب وأساسه وفيه آيات أُخر فيها اشتباه فى الدلالة على كثير من الناس.

---

(١) مناهل العرفان جـ ٢ ص ٢٧٠.
(٢) من الآية ٢٥ البقرة.
(٣) البرهان جـ ٢ ص ٦٩ بتصرف وتوضيح.
(٤) من الآية ١ هود.
(٥) من الآية ٢٣ الزمر.
(٦) من الآية ٧ آل عمران.

يقول الزرقانى: «ولا تعارض بين هذه الإطلاقات الثلاثة لأن معنى إحكامه كله أنه منظم رصين متقن متين لا يتطرق إليه خلل لفظى ولا معنوى كأنه بنيان مُشَيَّد محكم لا يتابه تصدع ولا وهن ولا خلل ولا فساد» [1].

فالكلام المحكم المتقن تتفق معانيه وإن اختلفت ألفاظه، فإذا أمر القرآن بأمر لم يأمر بنقيضه فى موضع آخر وإنما يأمر به أو بنظيره وكذلك الشأن فى نواهيه وأخباره فلا تضاد فيه ولا اختلاف **﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً﴾** [2] تناقضا كبيرا.

ومعنى كونه كله متشابها أنه يشبه بعضه بعضا فى إحكامه وإتقانه وحُسْنِه وبلوغه حد الإعجاز والروعة فى ألفاظه ومعانيه ومبانيه فليس هناك مفضول وأفضل فهو متماثل فى نظمه ورصفه وجودته ونسجه.

وتشابه الكلام هو تماثله وتناسبه بحيث يصدق بعضه بعضا.

وأما أن بعضه محكم وبعضه متشابه:

فمعناه أن من القرآن ما اتضحت دلالته على مراد الله تعالى منه وهذا هو المحكم ومنه ما خفيت دلالته على هذا المراد الكريم وهذا هو المتشابه الذى لا يعلم تمام علمه إلا الله تبارك وتعالى.

وقد اقتضت حكمة المولى ذلك التقسيم ليمحص الله المؤمنين الراسخين فى العلم الذين يؤمنون به ويعلمون ما تشابه منه بما نور الله به قلوبهم وأبصارهم، وليعلم الذين فى قلوبهم مرض والذين يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة فضلوا وأضلوا وضلوا عن سواء السبيل.

وفيما رواه البخارى عن عائشة قالت «تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: **هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب، إلى قوله سبحانه: وما يذكر إلا أولوا الألباب قالت: قال رسول الله ﷺ فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين**

---

(١) مناهل العرفان جـ ٢ ص ٢٧١ بتصرف.

(٢) من الآية ٨٢ النساء.

سمى الله فاحذرهم؛[1] ولاتتبع خطاهم.

كمـا أن الله سبحانه يريد أن يختـبر إيمان المخلصين بأمـثال هؤلاء الذين فى قلوبهم مرض ليمحصهم.

ثالثا: آراء العلماء في تمييز المحكم والمتشابه:

١ ـ منها أن المحكم هو الـواضح الدلالة الظاهر فى معناه والذى لا يحـتمل النسخ ولم يرد بشأنه ناسخ.

أما المتـشابه فهـو الخفى الذى لا يدرك ولا يفهم مـعناه لاعقلا ولا نقـلا، وهو ما استأثر الله تعالى بعلمـه أو بتمام علمه كقيام الساعـة والحروف المقطعة فى أوائل السور وغير ذلك، وهذا رأى الحنفية[2] .

ويرد على ذلك بأن بعـضـا من المتشـابه يمكن التـوصل إلى بعض حـقائقـه بالعلم والدرس.

٢ ـ ومنهـا أن المحكم ما عـرف المراد منه إما بالظهـور المباشـر وإما بالتـأويل يعنى بالتفسيـر والتوضيح، أما المتشابه فهو مـا استأثر الله تعالى بعلمه أو بتمام علمـه كقيام الساعة والحروف المقطعة فى أوائل السور؛ وينسب هذا إلى أهل السنة.

ويرد على ذلك أيضا بأن هناك بـعضا من المتشـابه يمكن التوصل إلى بعض معـانيه بالبحث والدرس.

٣ ـ ومنهـا أن المحكم مالا يحـتـمل إلا وجهـا واحدًا مـن التأويل أو المعنى، أمـا المتشابه فهـو على العكس ما احتمل أوجها متعـددة، ويعزى هذا الرأى إلى ابن عباس ويجرى عليه أكثر الأصوليين.

وهذا التعريف فيه شيء من القصور فقد لا نجد لبعض المتشابه أوجها.

٤ ـ ومنها أن المحكم مـا استقل بنفسه ولم يـحتج إلى بيان أوتوضـيح، أمـا المتشابه فهو الذى لا يستقل بنفسـه بل يحتاج إلى بيان وتوضيح فتارة يبين بكذا وتارة يبين بكذا لحصول الاخـتلاف فى تأويله وفهم معناه؛ ويحكى هذا القول عن الإمـام أحمد رضى

---

(١) صحيح البخارى جـ ٦ ص ٤٢ ـ أبواب التفسير ـ تفسير سورة آل عمران.

(٢) أنظر الإتقان للسيوطى جـ ٢ ص ٢.

الله عنه.

٥ ـ ومنها أن المحكم هو الواضح المعنى الذى لا يتطرق إليه إشكال أو اختلاف مأخوذ من الإحكام وهو الإتقان أما المتشابه فنقيضه وينتظم المحكم على هذا ما كان نصا وما كان ظاهرا فى معناه، وينتظم المتشابه ما كان من الأسماء المشتركة يعنى المشترك اللفظى ـ وما كان من الألفاظ الموهمة للتشبيه فى حقه سبحانه كقوله تعالى: ﴿بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾[1] وقد اختلفوا فى تأويلها منهم من قال إنها كناية عن الكرم، ذلك لأنه ليس كمثله شيء فهو سبحانه بعيد عن التشبه بالحواس- وهذا هو رأى الطيبى رضى الله تعالى عنه.

٦ ـ وقيل «كذلك أن المحكم يشمل فيمايشمله الفرائض والوعد والوعيد والحلال والحرام والحدود والآيات الناسخة فى حين أن من المتشابه الآيات التى اشتهرت بأنها منسوخة، وما فيها غيب وعلم الساعة وما أمرنا أن نؤمن به ونكل علمه إلى عالمه سبحانه»[2] ـ ونلاحظ كذلك على هذاالتعريف أنه لم يحدد بالدقة صورا أخرى تعد من المتشابه والتى ستظهر تباعا عند استعراض باقى الآراء.

٧ـ وأما عن الرأى المختار من بين الآراء ويعزى إلى الإمام الرازى واختاره كثير من المحققين:

أن المحكم: ما كانت دلالته راجحة وهو النص والظاهر فى معناه.

أما المتشابه: فما كانت دلالته غير راجحة وهو المجمل والمؤول والمشكل وتوضيح ذلك فيما يلى:

أن اللفظ الذى جُعل موضوعا لمعنى إما ألا يكون محتملا لغيره وهذا محكم بإطلاق؛ وهذا هو النص الواضح.

وإما أن يكون اللفظ محتملا لغيره وتحت هذاأنواع: إما أن يكون احتماله لأحد المعانى راجحا وهذا هو الظاهر فهو محكم أو أن يكون احتماله لغيره مرجوحا وهذا هو المؤول يعنى مصروف عن المعنى الحقيقى إلى المجازى وهو متشابه، وقد يكون اللفظ

(١) من الآية ٦٤ المائدة.

(٢) أنظر فى ذلك الإتقان للسيوطى جـ ٢ ص ٢.

محتملا لمعنيين أو ثلاثة فإذا كانت دلالته عليها بالتساوى جميعا كان مشتركا وهذا من المتشابه كذلك، وإذا كانت دلالته لأحدهما على التعيين والاختيار يسمى مجملا وهو من المتشابه أيضا.

وقد يسمى اللفظ مُشْكلا إذا كان معناه الراجح المتبادر باطلا لدليل ـ كقوله سبحانه: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ فالاستواء يعنى الاستيلاء فى وضع اللغة وهو باطل فى حقه سبحانه ـ وكان المعنى المرجوح أى الخفى حقا: وفى مثالنا هذا فى الاستواء على العرش يعنى صار له ملك العرش كله وهذا هو المعنى الخفى والله أعلم بالصواب.

وعمدة القول أن المحكم ما كانت دلالته راجحة وهو النص الواضح والظاهر فى معناه لاشتراكهما فى حصول الترجيح ـ إلا أن النص راجح مانع من الغير والظاهر راجح غير مانع منه.

أما المتشابه فهو ما كانت دلالته أى معناه غير راجحة وغير واضحة وهو المجمل والمؤول والمشكل لاشتراكها فى أن دلالة كل منها غير راجحة وغير واضحة.

وأما المشترك اللفظى فإن أريد منه كل معانيه على التساوى فهو من قبيل الظاهر المحكم كلفظ القرء للحيض والطهر فى أصل اللغة.

وإن أريد بعضها على التعيين فهو مجمل يعنى من المتشابه[1] الذى تَخْتَلِف فيه وجهات النظر.

وعلي وجه الإجمال:

إذا نظرنا إلى هذه الآراء جميعا لا نجد بينها تناقضا ولا تعارضا فى الغالب، بل نلاحظ تشابهاً وتقارباً، بيد ان رأى الرازى أهداها سبيلا وألمعها بيانا لأن أمر الإحكام والتشابه يرجع أساسا إلى وضوح المعنى المراد للشارع من كلامه وإلى عدم وضوحه.

فلا يدخل فى المحكم ما كان خفيا ولا فى المتشابه ما كان جليا أى واضحاً، والله أعلم بالصواب.

---

(١) أنظر فى كل هذا مناهل العرفان جـ ٢ ص ٢٧٥ وما بعدها بتصرف.

منشأ التشابه وأقسامه وأمثلتـــه

علمنا أن منشأ التشـابه إجمالا هو خفاء مُراد الشارع من كلامـه وهذا الخفاء إما أن يرجع إلى اللفظ وحده أو إلى المعنى وحده أو إليهما معا.

أولاً: القسم الأول:الخفاء في اللفظ وحده:

(١) الخفاء فى اللفظ المفـرد من جهة الغرابة ونُدرة الاستعمـال كلفظ الأبّ بتشديد الباء فى قوله سبحانه: ﴿**وفاكهة وأبّا**﴾[١] وهو طعام البهائم بدليل قوله بعدها: ﴿**متاعا لكم ولأنعامكم**﴾ ولحيواناتكم.

(ب) والتشـابه فى المفرد بسبب اشـتراكه بين معـان عدة. كلفظ اليـمين فى قـوله سبحانه: ﴿**فراغ عليـهم ضَرْباً باليمين**﴾[٢] أى فاقـبل إبراهيم عليه السـلام على أصنام قومه ضارباً لها بيده اليمنى أو ضاربا لها ضربا شديداً فاليمين هى أقوى الجارحتين، أو ضاربا لها بسبب اليمين التى حلفها.

﴿**وتالله لأكيدن أصنامكم بـعد أن تولوا مدبرين**﴾[٣] بعد أن تذهبـوا وكله جائز لأن اللفظ مشترك بينها.

(جـ) ومثال التشابه فى الألفاظ المركبة بسبب اختصارها:

قوله تـعالى: ﴿**وإن خـفـتم ألا تقـسطوا فى اليـتـامى فـانكحـوا مـا طاب لكم من النساء**﴾[٤][٥] أى إذا كانت تحـت ولاية أحدكم يتـيمة وخـاف ألا يعطيـها مهـر المثل فليتركها إلى ما سواها فالنساء كثير وانكحوا ما شئتم من النساء سواهن إن شاء أحدكم اثنين أو ثلاث أو أربع.

---

(١) آية ٣١ عبس.

(٢) آية ٩٣ الصافات.

(٣) آية ٥٧ الأنبياء.

(٤) من الآية ٣ النساء.

(٥) مناهل العرفان جـ ٢ ص ٢٧٨.

فإن خفاء المراد فى نظم الآية جاء من ناحية الإيجاز، والأصل وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى لو تزوجتموهن فانكحوا من غيرهن ما طاب لكم من النساء ومعناه أنكم إذا تحرجتم من زواج اليتامى مخافة أن تظلموهن فأمامكم غيرهن فتزوجوا منهن ما طاب لكم.

وقيل إن القوم كانوا يتحرجون من ولاية اليتامى ولا يتحرجون من الزنى فأنزل الله الآية ومعناه: إن خفتم الجور فى حق اليتامى فخافوا الزنى أيضا وتبدلوا به الزواج الذى وَسّع الله عليكم فيه فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع.

(د) ومثال التشابه في المركب بسبب بسطه والإطناب فيه:

قوله جلت حكمته ﴿ليس كمثله شىء﴾[1]، فإن حرف الكاف لو حذف وقيل «ليس مثله شىء» كان أظهر للسامع من هذا التركيب الذى يَنْحَلّ إلى «ليس مثل مثله شىء»[2] يعنى ليس مثل ذاته ذات.

ويقول القرطبى: «المعنى ليس كذاته ذات»[3] وذات الله لا شبيه لها فلا ند له يعنى لا نظير له، ولا ضد له كذلك فليس هناك إله خير وإله شر.

فالتعبير القرآنى فيه من الدقة والحجة واللطافة والانسجام ما فيه مما يعلو على كثير من الأفهام.

(هـ) ومثال التشابه يقع فى المركب لترتيبه ونظمه والتقديم والتأخير فيه:

قوله سبحانه: ﴿الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، قيمًا﴾[4].

«فإن الخفاء هنا جاء من جهة الترتيب بين لفظ (قيّما) وما قبله ولو قيل أنزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا لكان أظهر أيضا»[5] ـ ولكن النسج الحكيم للآيات أجمل فى رصفه وجرسه والله أعلم.

---

(١) من الآية ١١ الشورى.

(٢) مناهل العرفان جـ ٢ ص ٢٧٩.

(٣) تفسير القرطبى جـ ١٦ ص ٨.

(٤) الآية ١ وجزء ٢ الكهف.

(٥) مناهل العرفان جـ ٢ ص ٢٧٩.

ثانيا: القسم الثاني: وهو ما كان التشابه فيه راجعا إلي خفاء المعني وحده:

ومثاله كل ما جاء فى القرآن الكريم وصفا لله تعالى أو لأهوال القيامة أو لنعيم الجنة وعذاب النار فإن العقل البشرى لا يمكن أن يحيط بحقائق ذات وصفات الخالق وقيوميته على ما خلق، فالكائنات جميعا تستمد حياتها ووجودها منه سبحانه.

ومن أمثال التشابه والغموض، اختلافهم فى قوله سبحانه: ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾ (آية ٥ سورة طه) فالاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة، والإيمان به واجب، فهو سبحانه صار له الملك كله بعد خلق السماوات والأرض فى ستة أيام كذلك الإحاطة بأهوال القيامة أو نعيم أهل الجنة، وعذاب أهل النار كلها لا يعلم مداها وكنهها إلا الله سبحانه.

ثالثا: القسم الثالث: وهو ما كان التشابه فيه راجعا إلي اللفظ والمعني معاً:

مثل قوله سبحانه: ﴿**وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون**﴾[١] .

فإن من لا يعرف عادة العرب فى الجاهلية، لا يستطيع أن يفهم النص الكريم على وجهه[٢] وأن يتصوره تماماً.

«فقد ورد أن ناسا من الأنصار كانوا إذا أحرموا لم يدخل أحد منهم حائطا ولا دارا ولا فُسطاطا من باب» [٣].

فإن كان من أهل المدر (يعنى الحضر) نَقَبَ نَقبْا فى ظهر بيته يدخل ويخرج منه وإن كان من أهل الوبر (يعنى الخيام) خرج من خلف الخباء ـ فنزل قول الله تعالى: الآية.

فالخفاء فى الآية يرجع إلى اللفظ بسبب اختصاره، ولو بُسِط لقيل: وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها إذا كنتم محرمين بحج أو عمرة، ويرجع الخفاء إلى المعنى أيضا لأن النص على فرض بَسْطه فلابد معه من معرفة عادة العرب فى الجاهلية وإلا لتعذر فهمه.

---

(١) الآية ١٨٩ البقرة.

(٢) مناهل العرفان جـ ٢ ص ٢٧٩.

(٣) أسباب النزول للسيوطى ص ٣٦.

هذه وحسب على سبيل الأمـثلة من نصوص فيها التشـابه والإبهام والتى تحتاج إلى الدراسة لفهم معناها ومغزاها وبلاغتها.

ويدخل فى زمرة هذا القسم: الحروف المقطعة أوائل السور والتى اسـتهل بها بعضها لأن التشـابه والخفاء فى المراد منهـا جاء من ناحية تـركيبهـا اللفظى وما تشيـر إليه من معان، حيث اختلف فيهـا العلماء أهى للدلالة على أن هذا القرآن مركب من مثل هذه الحروف وأنتم عاجزون عن الإتيـان بمثل تركيبها أو أنها أسـماء لله وصفات له وأن كل حرف منها له معنى مثل (المص)[1] (أنا الله أعلم وافـصّل) أو أن الله أعلم بمراده تمام العلم، والله أعلم بالصواب.

---

(١) آية رقم ١ الأعراف.

أنواع المتشابهات

وعلى ضوء ما سبق يمكننا أن نقسم المتشابهات ثلاثة أنواع:

«الأول: مالا يستطيع الناس أن يصلوا إليه كالعلم بذات الله وحقائق صفاته، والعلم بوقت القيامة وغيره من الغيوب التى استأثر الله تعالى بها: **﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾**[1] أى عند الله خزائن الغيب وهى الأمور المغيبة الخفية لا يعلمها ولا يحيط بها إلا هو سبحانه.

والغيوب الخمس وردت فى قوله جل شأنه **﴿إن الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير﴾** [2].

هذه مفاتح الغيب التى اختص الله بعلمها وهى خمس كما جاء فى الحديث: **«عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال قال النبى ﷺ: مفاتيح [*] الغيب خمس ثم قرأ: إن الله عنده علم الساعة»** [3].

أى عنده تعالى معرفة وقت قيام الساعة التى تقوم فيها القيامة، وعنده سبحانه وقت نزول المطر وبأى كمية ومحل نزوله ويعلم ما فى الأرحام عموما من أى المخلوقات عما إذا كان ذكرا أو أنثى أو سليما أو مريضا أو شقيا أو سعيداً .. إلخ ولا يدرى أحد ماذا سيحدث له فى غد وماذا يفعل من خير أو شر، كما لا يدرى أحد فى أى مكان يموت ولا فى أى مكان يقبر وهو سبحانه وسع كل شىء علما مبالغ فى العلم يعلم كل الأمور جليلها وقليلها، خبير بظواهر الأشياء وبواطنها.

الثانى: ما يستطيع الإنسان أن يعرفه عن **طريق البحث والدرس** كالمتشابهات التى نشأ التشابه فيها من الإجمال والبسط والاطناب والترتيب فى الأسلوب.

---

(١) من الآية ٥٩ الأنعام.

(٢) الآية ٣٤ لقمان.

(٣) صحيح البخارى حـ ٦ ص ١٤٤ تفسير سورة لقمان.

(*) جمع مفتاح هامش البخارى الصفحة المذكورة ص ١٤٤ حـ ٦.

الثالث: ما يعلمه خواص العلماء دون عامتهم من المعانى العالية التى تفيض على قلوب أهل الصفاء والاجتهاد عند تدبر كتاب الله تبارك وتعالى.

مثل ما فتح الله به على ابن عباس بدعوة الرسول ﷺ إذ دعا له: «اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل» [1] [2].

فهى دعوة مستجابة ببركتها علمه المولى سبحانه من لدنه علما نافعا وفقها فى الدين وتفسيرًا لكتاب الله العزيز فنفع الله به الأمة ببركته.

الحكم من وراء المتشابهات

أولا: بالنسبة للنوع الأول الذي استأثر الله تعالي بتمام علمه:

١ ـ رحمة الله بالإنسان الضعيف فأخفى ميعاد قيام الساعة حتى لا يفتك بهم الخوف كما أخفى عن كل إنسان أجله حتى يعمل فى بحبوحة من عمره، فسبحانه من إله حكيم رحيم رحمن أراد الخير بالإنسان.

٢ ـ الابتلاء والاختبار: أيؤمن الإنسان بالغيب أم يكفر، والعقل مبتلى باعتقاد أحقية المتشابه فالذين اهتدوا يقولون آمنا به كل من عند ربنا والذين فى قلوبهم زيغ يكفرون ويضلون عن سواء السبيل.

٣ ـ إقامة الدليل على عجز الإنسان وجهالته مهما غزر علمه، فسبحانه قد أحاط بكل شىء علما: ﴿ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء﴾ [3] أى لا نعلم شيئا من معلوماته إلا بما علمنا إياه عن طريق الرسل. ﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾ [4] يعنى ننزهك ياربنا عن أى نقص ونحن لا علم لنا إلا ما علمتنا إياه إنك أنت العليم الذى لا تخفى عليه خافية، الحكيم الذى لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة.

---

(١) مسند احمد بن جنبل جـ ١ ص ٢٦٦.

(٢) مناهل العرفان للزرقانى جـ ٢ ص ٢٨١وص ٢٨٢.

(٣) من الآية ٢٥٥ البقرة.

(٤) من الآية ٣٢ البقرة.

ثانيا: بالنسبة للنوع الثاني الذي يستطيع الإنسان أن يفهمه بالبحث والدرس:

١ ـ **تحقيق إعجاز القرآن:** فكل خفاء يؤدى إلى التشابه له مدخل عظيم فى البلاغة ويستتبع ضرورة دراسة علوم كثيرة أخرى كأصول الفقه وعلم الكلام والأدلة العقلية وغيرها.

٢ ـ متى كانت المتشابهات موجودة كان الوصول إلى الحق أصعب وأشق وزيادة المشقة توجب مزيد الثواب ـ يقول تعالى: ﴿**أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين**﴾ [١] [٢].

وهذا استفهام على سبيل الإنكار، أى هل تظنون يامعشر المؤمنين أن تنالوا الجنة وتنالوا كرامة ربكم بدون ابتلاء وتمحيص؟ ولما تجاهدوا فى سبيله فيعلم الله جهادكم وصبركم على الشدائد وعند الكروب وما ينالهم فى ذات الله من ألم ومكروه ولكل درجات بقدر صبره وجهاده. والله سبحانه وتعالى يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

---

(١) الآية ١٤٢ آل عمران.

(٢) أنظر فى كل هذا مناهل العرفان للزرقانى جـ ٢ ص ٢٨٢ إلى ص ٢٨٥.

المبحث الثالث عشر
الناسخ والمنسوخ

نزلت الشرائع السماوية من الله جل جلاله لإصلاح الناس فى العقيدة والعبادة والمعاملة.

والعقيدة واحدة قائمة على توحيد الله جل فى علاه.

والعبادات والمعاملات تتفق فى الأسس العامة التى تهدف إلى تهذيب النفوس والمحافظة على سلامة المجتمع وربطه برباط التعاون والإخاء إلا أن مطالب كل أمة تختلف عن غيرها ومن ثم تطور التشريع ليتلاءم مع حاجات البشر.

والمشرع سبحانه وسع كل شىء رحمة وعلما وهو ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾ [1] فلا غرابة فى أن يرفع تشريعا بآخر مراعاة لمصلحة العباد.

معنى النسخ:

(١) النسخ فى اللغة:

ويلاحظ أنه مشترك لفظى يدل على كل معانيه على قدم المساواة ومثال ذلك:

١ ـ قول الراغب: «النسخ إزالة شىء بشىء يتعقبه»[2] يعنى يأتى بعده.

ومنه قوله تعالى: ﴿فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته﴾[3] أى يزيل الله ويبطل ما يلقيه الشيطان من الوساوس والأوهام ثم يثبت فى نفس الرسول ﷺ آياته الدالة على الوحدانية والرسالة والبعث والنشور.

٢ ـ ويذكر الزركشى أنه «ويأتى النسخ بمعنى التبديل كقوله سبحانه: ﴿وإذا بدلنا آية

---

(١) الآية ٢٣ الأنبياء.

(٢) مفردات الراغب ص ٥١١.

(٣) من الآية ٥٢ الحج.

مكان آية والله أعلم بما ينزل﴾ [1] ، [2] .

أى وإذا أنزلنا آية مكان آية وجعلناها بدلا منها بأن ننسخ تلاوتها أو حكمها والله تعالى أعلم بما يصلح حال العباد والبلاد.

٣ ـ ويأتى النسخ كذلك بمعنى التحويل كتناسخ المواريث يعنى تحويل الميراث من شخص إلى آخر بالطريق الشرعى كوفاة المورث فيأتى وارثه يعقبه فى تركته.

٤ ـ ويأتى النسخ بمعنى النقل من موضع إلى موضع ومنه «نسخ الكتاب أى نقل صورته المجردة إلى كتاب آخر وذلك لا يقتضى إزالة الصورة الأولى بل يقتضى إثبات مثلها فى مادة أخرى»[٣] فقد نقل ما فيه حاكيا للفظه. ومنه ما فى القرآن الكريم: ﴿إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾ [٤] كنا نسجل لهم ما يعملون.

والمراد به نقل الأعمال إلى الصحف، ووجدوا ما عملوا حاضرا.

يقول الراغب: «وقد يعبر بالنسخ عن الاستنساخ»[٥] ـ يعنى النقل وعلى هذا يفهم معنى الكلمة فى الجملة من السياق والقرائن.

(ب) النسخ في الاصطلاح:

معنى النسخ اصطلاحا: يقول فى ذلك الزرقانى هو: رفع الحكم الشرعى بدليل شرعى يكون متراخياً، يعنى متأخرا عن الأول على وجه لولاه لكان الحكم الأول ثابتا، وأن يكون هناك تعارض حقيقى بين الدليلين بحيث لا يمكن الجمع بينهما.

ومعنى رفع الحكم الشرعى: قطع تعلقه بأفعال المكلفين وهو يختلف عن التخصيص الذى يقصر الحكم على بعض أفراده.

والحكم الشرعى هو خطاب الله تعالى المتعلق بأفعال المكلفين إما على سبيل الطلب

---

(١) من الآية ١٠١ النحل.

(٢) البرهان للزركشى جـ ٢ ص ٢٩.

(٣) مفردات الراغب ص ٥١١.

(٤) آية ٢٩ الجاثية.

(٥) مفردات الراغب ص ٥١١.

أو الكف(يعنى النهى) أو التخيير يعنى (الإباحة)»[1] .

وألا يكون الخطاب المرفوع حكمه مُقَيّدا بوقت معين أو غاية معينة وإلا فالحكم ينتهى بانتهاء وقته ولا يُعَدّ هذا نسخا مثل قوله سبحانه: **﴿فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره﴾**[2] ـ فهذا محكم غير منسوخ لأنه مؤجل بأجل والمؤجل بأجل لا نسخ فيه ـ فلا تعارض إذن فى الأحكام ومن ثم لا نسخ.

فالمنسوخ بهذا هو الحكم المرتفع:

ويطلق الناسخ على الله تعالى كقوله سبحانه **﴿ما ننسخ من آية﴾**[3] كما يطلق الناسخ على الآية التى يُعرف بها النسخ فيقال هذه الآية ناسخة لآية كذا، وعلى الحكم الناسخ لحكم آخر كذلك.

ما يقع فيه النسخ:

فلا يقع النسخ فى كل ما جاء به الشارع ولكن هناك أمورًا محدودة .

يقول السيوطى: «لا يقع النسخ إلا فى الأوامر والنواهى»[4] سواء أكانت صريحة فى الطلب أو كانت بلفظ الخبر الذى بمعنى الأمر أو النهى شريطة ألا يكون ذلك متعلقا بالاعتقادات التى ترجع إلى ذات الله تعالى وصفاته واليوم الآخر وكتبه ورسله **﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾**[5] وهو سبحانه القائل: **﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾**[6] فهذه أصول عامة فى سائر الشرائع كذلك فلا يرد فيها النسخ.

ومالا يدخله النسخ فهو الخبر الصحيح الذى ليس بمعنى الطلب وكذلك الوعد والوعيد فالإخبار بهذه الأمور كان وما يزال صدقا: **﴿ومن أصدق من الله قيلا﴾**[7] ،

---

(١) مناهل العرفان جـ ٢ ص ١٧٦ .

(٢) من الآية ١٠٩ البقرة.

(٣) من الآية ١٠٦ البقرة.

(٤) الإتقان للسيوطى جـ ٢ ص ٢١ والبرهان للزركشى جـ ٢ ص ٣٣.

(٥) من الآية ١٨٥ البقرة.

(٦) من الآية ١٣ الشورى.

(٧) من الآية ١٣٢ النساء.

﴿ومن أصدق من الله حديثا﴾[1]»[2] فقوله الحق والصدق، فلا تضارب ولا تناقض فيما يخبرنا به من قصص السابقين فهي حقيقة .

ومما يعين على معرفة الناسخ والمنسوخ طرق منها:

١ ـ النقل الصريح عن النبى ﷺ أو عن صحابى كحديث الرسول ﷺ: **«كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإنه يرق القلب وتدمع العين وتذكر الآخرة»**. [3]

فزيارة القبور لها بذلك مواعظ وحكم، وكما يقع النسخ فى الآيات القرآنية يقع كذلك فى الأحاديث النبوية الصحيحة فالمتأخر ورودا من الحديث النبوى ينسخ المتقدم فى جزئية التعارض فلا تناقض فى أحكام الشارع قرآنا كان أو سنة.

٢ ـ الإجماع على أن هذا ناسخ وهذا منسوخ والإجماع المعتد به هو إجماع أهل السنة، فى المسائل الصريحة فى نسخها ولاخلاف فيها كالصدقة عند مناجاة الرسول ﷺ

٣ـ معرفة المتقدم والمتأخر فى تاريخ النزول، لأن المتأخر ينسخ المتقدم.

ولا يعتمد فى النسخ على «الاجتهاد أو التعارض بين الأدلة ظاهراً» [4] .

ولا يجوز التوسع فى النسخ طالما كان من الممكن إعمال النص بوجه من وجوه التأويل أو التخصيص.

الآراء في النسخ وأدلة ثبوته:

١ ـ اليهود:

وهؤلاء ينكرونه لأنه يستلزم فى زعمهم البداء وهو الظهور بعد الخفاء «كالذى يرى الرأى، ثم يبدو له أنه باطل تماما، كالإحياء بعد الإماتة وعكسه، والمرض بعد الصحة وعكسه والفقر بعد الغنى وعكسه وذاك لا يكون بداء فكذا الأمر والنهى» [5] .

---

(١) من الآية ٨٧ النساء.

(٢) الإتقان للسيوطى جـ ٢ ص ٢١ بتصرف.

(٣) المستدرك للحاكم ص ٣٧٦ كتاب الجنائز عن انس بن مالك.

(٤) مباحث فى علوم القرآن لمناع القطان ص ٢٣٤.

(٥) البرهان للزركشى جـ ٢ ص ٣.

واليهود يعنون بذلك أن النسخ إما أن يكون لغير حكمة وهذا عبث مُحال على الله وإما أن يكون لحكمة ظهرت ولم تكن ظاهرة من قبل وهذا يستلزم البداء وسبق الجهل وهو محال على الله تعالى كذلك.

واستدلالهم هذا فاسد لأن كلا من حكمة الناسخ والمنسوخ معلوم لله تعالى من قبل فلم يتجدد علمه بها وهو سبحانه ينقل العباد من حكم إلى حكم لمصلحة معلومة له من قبل بمقتضى حكمته وتصرفه المطلق فى ملكه جل شأنه.

٢ ـ الرافضة:

يذكر الزرقانى: « أن هؤلاء أثبتوا النسخ وتوسعوا فيه ثم أسرفوا فى إثبات هذا البداء اللازم له فى زعمهم ونسبوه إلى الله فى صراحة ووقاحة ﴿ **سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيرا**﴾ (١) ـ وتمسحوا بقول الحق سبحانه: ﴿**يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب**﴾(٢) (٣) ولا مستندلهم فى الآية ـ فمعناها أن الله يغير ما يشاء من شرائعه وخلقه على وفق » علمه وإرادته وحكمته فينسخ الله ما يستصوب نسخه ويثبت بدله ما يرى المصلحة فى إثباته.

وكل من المحو والإثبات موجود فى كثير من الحالات كمحو السيئات بالحسنات كما فى قوله سبحانه: ﴿**إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين**﴾(٤) فالأعمال الصالحة عموما تكفر الذنوب وفى هذا عظات بالغات لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

٣ ـ وجمهور العلماء:

على جواز النسخ عقلا ووقوعه شرعا كما يلى:

لأن أفعال الله تعالى لا تعلل بالأغراض، فله أن يأمر بالشىء فى وقت وينسخه

---

(١) آية ٤٣ الإسراء.

(٢) آية ٣٩ الرعد.

(٣) مناهل العرفان جـ ٢ ص ١٨٢.

(٤) من الآية ١١٤ هود.

بالنهى عنه فى وقت وهو أعلم بمصالح العباد.

أولا: من الأدلة السمعية على وقوع النسخ:

أ- أن نصوص الكتاب دالة على جواز النسخ ووقوعه مثل قوله سبحانه: ﴿**وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل**﴾[1] .

أى وإذا أنزلنا آية مكان آية وجعلناها بدلا منها بأن ننسخ تلاوتها أو حكمها فالله سبحانه يعلم ما يصلح حال العباد وشأنهم.

وقوله تعالى: ﴿**ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها**﴾ [2].

أى ما نبدِّل من حكم آية فنغيره بآخر أو ننسها يارسول ﷺ بأن نمحها من قلبك نأت بخير لكم منها أيها المؤمنون بما هو أنفع لكم فى العاجل أو الآجل إما برفع المشقة عنكم أو بزيادة الأجر والثواب لكم.

وقوله سبحانه: ﴿**يمحو الله ما يشاء ويثبت**﴾[3] : أى ينسخ الله ما يشاء نسخه من الشرائع والأحكام ويقرر غيره بما ينفع الناس ويصلحهم.

(ب) ومن الأدلة السمعية كذلك على وقوع النسخ ما حدث فى الشرائع السابقة وأحكامها: كالجمع بين الأختين الذى كان مباحا فى شريعة يعقوب ثم حرم فى شريعة موسى، والطلاق الذى كان مشروعا فى شريعة موسى حُرم فى شريعة عيسى إلا إذا ثبت زنا الزوجة وغير ذلك من أحكام.

ثانيا: ومن الأدلة العقلية على وقوع النسخ فى الشرائع والأحكام أنه لو لم يكن جائزا عقلا وواقعا سمعا لما ثبتت رسالة النبى محمدﷺ إلى الناس كافة ـ لكن رسالته العامة للناس ثابتة بلا ريب إذن فالشرائع السابقة ليست باقية بل هى منسوخة بهذه الشريعة الخاتمة المحمدية.

---

(١) من الآية ١٠١ النحل.

(٢) من الآية ١٠٦ البقرة.

(٣) من الآية ٣٩ الرعد.

ولو لم يكن النسخ جائزا وواقعا لكانت الشرائع الأولى باقية، ولو كانت باقية ما ثبتت رسالة محمد ﷺ إلى الناس كافة[1] ولكنها ثابتة إلى آن تقوم الساعة وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ومن هنا نرى إمكان النسخ فى بعض أحكام شريعة الإسلام الخاتمة هذه حسب تطور المصلحة للناس.

(١) مناهل العرفان جـ ٢ ص ١٩٢ بتصرف.

أقسام النسخ:

نسخ القرآن بالقرآن:

وهذا القسم متفق على جوازه ووقوعه من القائلين بالنسخ.

١ - فمنها ما نسخ حكمه وبقي تلاوته:

كآية الاعتداد بالحول مثلا نسخت بآية الاعتداد بأربعة أشهر وعشرا، حيث يقول سبحانه: ﴿**والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج..**﴾ [١].

فكانت المرأة إذا مات زوجها لزمت التربص (أى الانتظار)[٢] - بعد انقضاء العدة حولا كاملا ونفقتها فى مال الزوج ولا ميراث لها وهذا معنى متاعا إلى الحول غير إخراج - نسخ الله تعالى ذلك بقوله يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا»[٣] يعنى على النساء اللواتى يموت أزواجهن أن يمكثن فى العدة أربعة أشهر وعشرة أيام حدادا على أزواجهن، وهذا الحكم لغير الحامل، أما الحامل فعدتها وضع الحمل لقوله سبحانه: ﴿**وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن**﴾[٤] بمجرد وضع الحمل تنتهى العدة حتى ولو بعد وفاة الزوج بدقيقة واحدة.

ومن قبيل ما نسخ حكمه مع بقاء تلاوته كذلك:

آية تقديم الصدقة أمام مناجاة الرسول ﷺ وهى قوله تعالى: ﴿**ياأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم**[*] **الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة**﴾[٥]؛ منسوخة بقوله سبحانه: ﴿**أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات؟ فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله**﴾[٦] - على معنى أن حكم الآية الأولى

(١) من الآية ٢٤٠ البقرة.

(٢) المفردات للراغب ص ١٩٠.

(٣) من الآية ٢٣٤ البقرة.

(٤) من الآية ٤ الطلاق.

(٥) من الآية ١٢ المجادلة.

(*) ساررته: مفردات الراغب ص ٥٠٤ يعنى يخلو به ليُحدثه سرًا.

(٦) من الآية ١٣ المجادلة.

منسوخ بحكم الآية الثانية مع أن تلاوة كلتيهما باقية- مع مُلاحظة أن الآية الثانية متراخية عن الأولى يعنى متأخرة عنها فى ترتيب النزول.

ومن قبيل ما نسخ حكمه مع بقاء تلاوته وصية الميراث:

قال تعالى: **﴿كتب عليكم إذ حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين﴾** (١) .

وهى تفيد أن الوصية مفروضة على من حضرهم الموت من المسلمين وهذه الوصية خاصة بالوالدين والأقربين المذكورين فى الآية. وقد اختلف فى الناسخ لها فقيل: «بآية المواريث وقيل بحديث ألا لا وصية لوارث، وقيل بالإجماع»(٢) وقيل بهم جميعا واليكم التفصيل:

(أ) آيات المواريث: التى فى سورة النساء **﴿يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾** آية ١١ وقوله: **﴿ولكم نصف ما ترك أزواجكم﴾** آية ١٢ ، وقوله: **﴿يَسْتفتونك قل الله يُفْتيكم فى الكلالة﴾** آية ١٧٦ يعنى فى شأن الميت إذا لم يكن له والد أو ولد من يرثه؟ ثم يبين الله تعالى ذلك إجابة على طلبهم الفتوى فى هذه المسألة الفقهية.

(ب) السنة: لقول الرسول ﷺ: **«إن الله قد أعطى كل ذى حق حقه ولا وصية لوارث»**(٣) حيث حدد الشارع لِكُلٍّ نصيب، اللهم إلا إذا كان هناك تراض بالمعروف لظروف إنسانية.

(جـ) الإجماع على عدم وجوب الوصية للوالدين والأقربين، وذكر ابن كثير رأى ابن عباس أن هذه الآية نُسخت (٤) .

والأوفق حمل الوصية فى الآية على الندب وليس للوجوب لمن حرم الإرث من

---

(١) آية ١٨٠ البقرة.

(٢) الإتقان للسيوطى جـ ٢ ص ٢٢ والحديث مذكور فى سنن النسائى آخر هذه الصفحة.

(٣) سنن النسائى جـ ٦ ص ٢٤٧ باب إبطال الوصية للوراث عن عمرو بن خارجة.

(٤) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢١١.

الأقربين لأى سبب كان كاختلاف الدين أو من له ظروف تقتضى زيادة العطف عليه كالمريض أو العاجز أو من له أولاد كثيرون.

«قال ابن المنذر: أجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم على أن الوصية للوالدين اللذين لا يرثان والأقرباء الذين لا يرثون جائزة.. وقد أخذ القانون برأى القائلين بجوازها للوارث.

فهى تصحّ بالثلث للوارث وغيره وتنفذ من غير إجارة الورثة وتصح بما إذا زاد على الثلث ولا تنفذ فى الزيادة إلا بإجارة الورثة»[1] إجارة قانونية وبالتراضى حتى تكون النفوس راضية.

٢ ـ ما نسخ تلاوته وبقي حكمه:

ويعمَل به إذا تلقته الأمة بالقبول، ويدل على وقوعه ما صحت روايته عن عمر بن الخطاب وأبى بن كعب أنهما قالا: «كان فيما أنزل من القرآن الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة»[2] ـ ولم يعد لها وجود بين دفتى المصحف ولا على ألسنة القراء مع أن حكمها باق لم ينسخ كما فى فعل الرسول ﷺ وحديث الشيخ والشيخة إذا زنيا رواه ابن حنبل «قال زيد بن ثابت سمعت رسول الله ﷺ يقول الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة» [3] يعنى الرجم والرمى بالحصا والحجارة حتى الموت.

وكما ورد ذلك فى البخارى «.. فقال الأعرابى إن ابنى كان عسيفا (*) على هذا فزنى بامرأته.. وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام وأما أنت يا أُنَيس فاغدُ على امرأة هذا فارْجمها فغدا عليها أنيس فرجمها»[4].

---

(١) مقال بالحولية الثامنة لكلية الدراسات الإسلامية والعربية عام ١٩٩٠م ص ١٠ فى الوصية بالمال للأستاذ د/ عبد المنعم القصاص.

(٢) البرهان للزركشى جـ٢ ص ٣٥ ومناهل العرفان جـ ص ٢١٥ وتفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٢٦١.

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل جـ ٥ ص ١٨٣.

(٤) صحيح البخارى جـ ٩ ص ٩٤ اكتاب الاحكام باب رقم ٣٩ ـ هل يجوز للحاكم أن يبعث رجلا وحده للنظر فى الأمور حديث رقم ١ عن أبى هريرة.

(*) والعسيف هو الأجير: المصباح المنير جـ ٢ ص ٦٢٦.

وليكن تنفيذ الحكم بيد الحكام وعلنا على مرأى من الجماعة ليكون العقاب أردع وأزجر لسائر الناس.

٣ ـ نسخ التلاوة والحكم معا:

يعنى أن نص الآية رُفِعَ، كما أن حكمها أزيل كذلك ـ ومثاله ما روى «عن عائشة قالت كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يُحرمن ثم نُسخن بخمس معلومات فتوفى رسول الله ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن»[١].

ومعناه أن النسخ بخمس رضعات تأخر إنزاله جدا حتى إن رسول الله ﷺ توفى وبعض الناس يقرأ خمس رضعات ويجعلها قرآنا مَتْلواً لكونه لم يبلغه النسخ لقرب عهده فلمابلغهم النسخ بعدها رجعوا عن ذلك، فجاءت المصاحف العثمانية خالية منها.

«وقال أبو موسى الأشعرى نزلت ثم رفعت، وقال مكى هذا المثال فيه المنسوخ غير متلو والناسخ أيضا غير متلو ولا أعلم له نظير» [٢]يعنى لا شَبِيه لهذه الحالة .

وفى حالة نسخ التلاوة، فلا يجوز القراءة بها، فلم تعد قرآنا يقرأ.

ويلاحظ أن مسألة عدد الرضعات المحرمات فيها خلاف فقهى وموضعه فى كتب الفقه.

تقسيم النسخ إلى بدل وإلى غير بدل:

فالحكم الشرعى الذى ينسخه الله تعالى إما أن يُحل محله حكمـا آخر أو لا، فإذا احل محله حكما آخر فذلك هو النسخ ببدل وإذا لم يحل محله حكما آخر فذلك هو النسخ بغير بدل «وكلاهما جائز عقلا وواقع سمعا على رأى الجمهور» [٣] لِمَا ورد من أمثلة فى هذا الصدد.

(١) ومثال النسخ بلا بدل: أن الله تعالى أمر بتقديم الصدقة بين يدى مناجاة الرسول

---

(١) صحيح مسلم جـ ٢ ص ١٠٧٥ ـ ١٧ كتاب الرضاع ٦ باب التحريم بخمس رضعات وشرح الهامش.
(٢) الإتقان للسيوطى جـ ٢ ص ٢٢.
(٣) مناهل العرفان جـ٢ ص ٢٢٠.

ﷺ فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة﴾،[1] ثم رفع هذا التكليف عن الناس من غير أن يكلفهم بشىء مكانه، بل تركهم فى حل من ترك الحكم الأول دون أن يوجه حكما آخر فقال: ﴿أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات، فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله﴾ [2] ، [3] فعلم الله ضعفهم ونفرهم فخفف عنهم.

وهذا من قبيل «نسخ المأمور به قبل امتثاله وهو النسخ على الحقيقة كأمر الخليل إبراهيم بذبح ولده إسماعيل»[4] بعد أن بلغ معه السعى امتحانا.

وهذا النوع هو كذلك من قبيل ما نسخ حكمه مع بقاء تلاوته فالتلاوة مازالت باقية.

وهذا النسخ بغير بدل بمقتضى الحكمة رعاية لمصلحة العباد ويصح أن يقال فيها إنه نسخ حكم الآية بما هو خير منها حيث كان عدم الحكم خيراً للناس وتيسيراً وتخفيفا عليهم.

(ب) **النسخ إلى بدل أخف**: ومثل له السيوطى بما ورد عن ابن عمر أنه قال أنزلت ﴿كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم﴾[5] كتب عليهم إذا صلى أحدهم العتمة أو نام حرم عليه الطعام والشراب والنساء إلى مثلها ـ فأنزل الله عز وجل ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾ [6]، [7] يعنى جماعهن ليلا.

وهذا تخفيف من ربنا ورحمة لنشكره على ذلك.

(حـ) **النسخ إلى بدل مُساو للحكم الأول**: فى خفته أو ثقله على نفس المكلف:

---

(١) آية ١٢ المجادلة.
(٢) آية ١٣ المجادلة.
(٣) مناهل العرفان جـ ٢ ص ٢٢١.
(٤) البرهان للزركشى جـ ٢ ص ٤١.
(٥) من الآية ١٨٣ البقرة.
(٦) من الآية ١٨٧ البقرة.
(٧) الإتقان للسيوطى جـ ٢ ص ٢٢.

«ومثلـوا له بنسخ وجوب اسـتقبـال بيت المقدس بوجـوب اسـتـقبـال الكعبة فـى قوله سبحانه: ﴿قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولـينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحـرام وحيثما كنتم فـولوا وجوهكم شطره﴾[1]، [2] فـواجب على المسلمين جميـعاً التوجه فى صلاتهم فرضـا أو نفلاً تجاه المسجد الحـرام يعنى مكة المكرمة وكلا الأمرين سواء بالنسبة للمكلف ولكنه امتحان للامتثال والثواب.

(د) النسـخ إلى بدل أثـقل: ومنهـا أن حد الزنى كـان فى فجـر الإسلام لا يعـدو التعنيف والحـبس فى البيوت بقوله سـبحانه: ﴿واللاتى يأتين الفـاحـشـة من نسـائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت﴾[3] ـ ثم نسخ ذلك بالجلد والنفى فى حق الـبكر وبالرجم فى حق الثـيب بقوله تعـالى: ﴿الزانيـة والزانى فـاجلدوا كل واحد منهـما مـائة جلدة﴾ [4] ويشهـدهما الشهـود ـ وقوله فى الرجم: ﴿الشيخ والشيخة إذا زنيا فـارجموهما البتة﴾ ـ وهذه الآية أيضا قـد نُسخ لفظها وبقى حكمها[5] مطبقـا بفعل الرسـول ﷺ وفى الحديث: «اغـد ياأنيس إلى امرأة هذا فـإن اعترفت فارجمها فغدا عليها فاعترفت فأمر بها رسول الله ﷺ فرجمت» [6].

وهذا الحكم الأثقل للردع فـفيه كـذلك المصلحة للمـجتـمع ولتنظيمـه وأمنه وأمانه وتخويف لكل من تسـول له نفسه بمثل هذه الجريمة الشنعاء.

النسخ في دورانه بين الكتاب والسنة:

النسخ فى الشريعة الإسـلامية قد يرد به القرآن، وقـد ترد به السـنة والمنسوخ كذلك قد يرد به القرآن وقد ترد به السـنة.

وسبق الحـديث عن نسخ القرآن بالقـرآن، وقدأجمع القـائلون بالنسخ من المسلمين

---

(١) من الآية ١٤٤ البقرة.

(٢) الناسخ والمنسوخ للسيوطى ص ٢٨ ومناهل العرفان جـ ٢ ص ٢٢٢.

(٣) من الآية ١٥ النساء.

(٤) من الآية ٢ النور.

(٥) البرهان للزركشى جـ ٢ ص ٣٠٥ ومناهل العرفان جـ ٢ ص ٢٢٢ وتفـسير ابن كثير جـ ٣ ص ٢٦١.

(٦) صحيح البخارى جـ ٢ طبعة اليمامة دمشق ص ٩٧١ ـ ٩ باب الشروط حديث رقم ٢٥٧٥.

على جوازه ووقوعه «لأن آيات القرآن متساوية فى العلم بها وفى وجوب العمل بمقتضاها»[1] فما بين دفتى المصحف نؤمن به ونعمل بأحكامه لنسعد فى الدنيا والآخرة.

(١) نسخ القرآن بالسنة المتواترة:

وهنا اختلفت الآراء بين مجيزين ومانعين.

أما «القائلون بالجواز هم مالك وأبو حنيفة والأشاعرة والمعتزلة:

وحجتهم فى ذلك أن كلا من القرآن والسنة وحى من عند الله فيقول تعالى: **﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى﴾**[2] فما يتكلم به الرسول ﷺ إنما هو وحى أوحاه الله إليه .

ولا فارق بينهما إلا أن ألفاظ القرآن من ترتيب الله وإنشائه وألفاظ السنة من ترتيب الرسول وإنشائه، وهذا لا أثر له فيما نحن بسبيله مادام أن الله هو الذى ينسخ وحيه بوحيه، وعلى هذا فنسخ أحد هذين الوجهين بالآخر لا مانع يمنعه عقلا كما أنه لا مانع يمنعه شرعا »[3] ـ كما أن الله تعالى يقول: **﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾**[4] والنسخ نوع من البيان والتوضيح والتشريع كذلك.

أما المانعون فهم الشافعى وأحمد فى إحدى روايتين عنه وأكثر أهل الظاهر[5]:

وهم يستدلون بقوله تعالى: **﴿ما ننسخ من آية أوننسهانأت بخير منها أو مثلها﴾**[6] والسنة فى زعمهم ليست خيرا من القرآن ولا مثله.

ولا تخلص لهم الآية دليلا ـ ذلك لأن معناها ما نُبدّل من حكم آية فنُغيره بآخر أو ننسك إياها يامحمد عليك الصلاة والسلام بأن نمحها من قلبك نأت بخير لكم منها أيها

---

(١) مناهل العرفان جـ ٢ ص ٢٣٦.

(٢) الآيات ٣، ٤ لنجم.

(٣) مناهل العرفان جـ ٢ ص ٢٣٧.

(٤) من الآية ٤٤ النحل.

(٥) مناهل العرفان جـ ٢ ص ٢٣٧.

(٦) من الآية ١٤٤ البقرة.

المؤمنون بما هو أنفع لكم فى العـاجل أو الآجل إما برفع المشقـة عنكم أو بزيادة الأجر والثواب لكم.

وهذا التبـديل فى التشريع بالإثبـات أو النسخ إلى بدل أو غير بدل من اختـصاص الشارع وحده كتابا أو سنة على السواء.

وفريق المانعين لنسخ القرآن بالسنة يذهبون إلى أسس محـاولة التوفيق عند التعارض بين ما فى بعض الآيات والأحاديث عن طريق التأويل أو التـخصيص ذلك لأن إعمال النص الوارد فى الكتاب الكريم أولى من إهماله بادعاء نسخه.

(ب) نسخ السنة بالقرآن:

ويُجيزه معظمهم لأن السنة وحى والقرآن وحى ولا مانع من نسخ وحى بوحى لمكان التكافؤ بينهـما كمـا أن الوقوع دليل على الجواز ،ومنهـا أن استقبـال بيت المقدس فى الصلاة لم يعـرف إلا من السنة وقد نسخه قـوله تعالى: ﴿**فول وجهك شطـر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره**﴾ [1] ، [2].

فأينما تكونوا فى أى مكان من الأرض أو فى أى وقت من أوقات الصـلاة فتوجهوا صوب المسجد الحرام فى مكة .

(جـ) وأما عن نسخ السنة بالسنة:

فقد أجـازه علماء الحديث وتفصـيل ذلك عندهم ومعروف أن السنة درجـات فمنها المتواترة ومنها المشهورة وأخبار الآحاد.

---

(١) من الآية ١٤٤ البقرة.

(٢) مناهل العرفان للزرقانى جـ ٢ ص ٢٤٥.

فوائد معرفة الناسخ والمنسوخ وحِكم الله فيما وراءه

١ ـ مما هو معروف أنه لا يجوز لأحد أن يفسر كتاب الله تعالى إلا بعد أن يعرف الناسخ والمنسوخ «وقد قال على بن أبى طالب لقاص أتعرف الناسخ والمنسوخ؟ قال: الله أعلم قال: هلكت وأهلكت [١] .

يريد أنه عرّض نفسه وعرض الناس للهلاك لأنه ربما يطبق حكما منسوخا أو أن يفتى الناس بحكم شرعى ربما قد نسخ بآخر سواء أكان هذا فى القرآن أو السنة.

٢ ـ كما أن معرفة الناسخ والمنسوخ ركن عظيم فى فهم الإسلام والاهتداء إلى معرفة الحلال والحرام وصحيح الأحكام فلا يختلط بعضها ببعض ولا يتناقض بعضها مع بعض.

٣ ـ والإلمام بالناسخ والمنسوخ كذلك يكشف النقاب عن سير التشريع الإسلامى وتطوره وحكمة الله فى تربيته للخلق وسياسته للبشر مراعاة لمصالح العباد مما يدل على أنه تنزيل من حكيم حميد عليم بشئون خلقه.

٤ - وفيما يذكره الزرقانى «فسر ابن عباس الحكمة فى قوله تعالى: ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيرا﴾ - أنها معرفة ناسخ القرآن ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه»[٢] وغيرها مما لاغنى عنه لفهم كتاب الله فهما صحيحا مُستقيما حتى نطبقه على بصيرة وعلى هدى.

٥ - ابتلاء المكلف واختياره بالامتثال وعدمه فترتفع درجته وثوابه بالامتثال فى حالة النسخ بمساو فى الصعوبة أو السهولة.

٦ - إرادة الخير للأمة والتيسير عليها لأن النسخ إن كان إلى أشق ففيه زيادة الثواب وإن كان إلى أخف ففيه سهولة ويُسر ليشكروا ربّهم وليمجّدوه وليُحَبّبَ إليهم دينه الذى ارتضى لهم.

---

(١) البرهان للزركشى جـ٢ ص ٢٩ - والإتقان للسيوطى جـ٢ ص٢٠.

(٢) مناهل العرفان جـ٢ ص١٧٤.

٧ - وأما حكمة بقاء التلاوة مع نسخ الحكم فما يكتسبونه من الثواب على هذه التلاوة وماحوته تلك الآيات المنسوخات من بلاغة ومعجزات بيانية وعلمية وسياسية وما إلى ذلك.

٨ - ونسخ التلاوة مع بقاء الحكم فحكمته تظهر فى كل آية بما يناسبها؛ مثال ذلك: أنه صح فى الرواية عن عمر بن الخطاب وأبىّ بن كعب أنهما قالا: كان فيما أنزل من القرآن (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة) يعنى الرجم حتى الموت.

والقصد أن هذا النص كان آية تُتلى ثم نُسخت تلاوتها وبقى حكمها معمولا به إلى اليوم والسِّر فى ذلك أنها كانت تُتلى أولا لِتقرير حُكْمها رَدْعا لِمن تُحدِّثه نفسه أن يتلطخ بهذا العار الفاحش من شيوخ وشيخات حتى إذا ماتقرر هذا الحكم فى النفوس نسخ الله تلاوته لحكمة أخرى هى الإشارة إلى شناعة هذه الفاحشة وبشاعة صدورها من شيخ وشيخة حيث سلكها مسلك ما لايليق ان يذكر فضلا عن أن يُفعل كأنه قال نزهوا الأسماع عن سماعها والألسنة عن ذكرها فضلا عن الفرار منها ومن التلوث بِرجسها[1].

كما أن هذا الحكم ورد فى سنة الرسول ﷺ وبحكمه.

كما فى حديث البخارى والذى رواه أبو هريرة:

«... وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام، وأما انت يا أنيس فاغد على امرأة هذا فارجمها ... فغدا عليها أُنَيس فرجمها»[2].

وفى هذا مافيه من الردع والزجر لمن تسول له نفسه بهتك الأعراض وخاصة لمن كان محصنا.

٩ - وأما حكمة النسخ قبل العمل كالصدقة عند النجوى مع الرسول ﷺ وسؤاله فيثاب على الإيمان به وعلى نية طاعة الامر»[3] فى قوله سبحانه (**أأشفقتم أن تُقدموا**

---

(١) مناهل العرفان جـ ٢ ص١٩٦ ص١٩٧ وتفسير ابن كثير جـ٢ ص٢٦١.

(٢) صحيح البخارى جـ٩ ، ص٩٤ / كتاب الاحكام / باب رقم ٣٩ - هل يجوز للحاكم ان يبعث رجلا وحده للنظر فى الأمور - حديث رقم ١.

(٣) البرهان للزركشى جـ٢ ص ٣٩ والإتقان للسيوطى جـ٢ ص٢٣.

بين يدى نجواكم صـدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فـأقيموا الصـلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله) [1] . فخفف الله أمره بالصدقة وفى نظير ذلك داوموا على طاعة الله ورسوله كما أمرتم.

ولاشك أن هذه الحِكم البـالغات من وراء النسخ تزيد المؤمن إيمانا على إيمان ويـقينا على يقين والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

---

(١) من الآية ١٣ المجادلة.

المبحث الرابع عش
الأمثال فى القرآن الكريم

ضرب الله لنا الأمثال فى القرآن الكريم للعظة والاعتبار بإبراز الحقائق السامية فى معانيها وأهدافها وصورتها الرائقة بصياغتها فى قالب حسن يُقَرِّبها إلى الأفهام.

فالتمثيل هو القالب الذى يُبْرِزُ المعانى فى صورة حية ناطقة تستقر فى الأذهان بتشبيه المعقول بالمحسوس، وكم من معنى جميل أكسبه التمثيل روعة وجمالاً وبهاء فكان ذلك أدعى لِتَقَبُّل النفس له وإقناع العقل به وهو من أساليب القرآن فى ضروب بيانه ونواحى إعجازه.

ويذكر الحق سبحانه فى كتابه العزيز أنه يضرب الأمثال كما فى قوله جل وعلا: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾[1].

أى وتلك الأمثال نفصّلها ونوضّحها للناس لعلهم يتفكرون فى آثار قدرة الله ووحدانيته فيؤمنون.

ويقول كذلك: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾[2] والمعنى، وتلك الأمثال نُبَيِّنُها للناس فى القرآن لِتَقْرِيبها إلى أذهانهم وما يُدْرِكها ويفهمها إلا العالمون الراسخون فى العلم الذين يعقلون ويَتَبصَّرون مراد الله عز وجل.

ويقول جل ذكره ﴿ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون﴾[3] يعنى ولقد بيَّنا ووضَّحنا للناس فى هذا القرآن من كل الأمثال النافعة والأخبار الصريحة الواضحة مما يحتاجون إليه لعلهم يتعظون ويَعْتبرون.

---

(١) من الآية ٢١ الحشر.

(٢) الآية ٤٣ العنكبوت.

(٣) الآية ٢٧ الزمر.

تعريف المثل :

١ - «والأمثال جمع مثل والمثل والمِثل والمثيل: كالشبه والشبه والشبيه لفظا ومعنى»[1]- يعنى أنها مترادفات.

ويقول الراغب: «والمثل يقال على وجهين أحدهما بمعنى المثل نحو شِبْه وشَبَه، قال بعضهم وقد يعبر بهما عن وصف الشىء نحو قوله سبحانه: ﴿مثل الجنة التى وُعِد المتقون﴾[2] »[3] - أى صفة الجنة العجيبة الشأن التى وعد الله بها عباده المتقين والتى يُتَعَجَّبُ منها، بهذا يُطلق المثل على الحال والقصة العجيبة الشأن إذا كان فيها غرابة.

«والثانى: عبارة عن المُشَابهة لغيره فى معنى من المعانى أى معنى كان وهو أعم الألفاظ الموضوعة للمُشَابهة»[4] أى المماثلة.

٢ - وفى ضابط المثل كذلك إبراز المعنى فى صورة حسية تكسبه روعة وجمالا فتُقَرّبه إلى الأفهام.

أمثال القرآن وما تتضمنه ومفهومها وأنواعها:

١ - أمثال القرآن تتضمن الآيات المشتملة على تمثيل حال أمر بحال أمر آخر سواء أورد هذا التمثيل بطريق الاستعارة (بدون أداة تشبيه)، أم بطريق التشبيه الصريح؟ يعنى مصحوبة بأداة من أدوات التشبيه أو آيات دالة على معنى رائع بإيجاز وهو القول المرسل، فالله تعالى ابتدأها دون أن يكون لها مصدر من قبل.

٢ - والمثل فى القرآن هو إبراز المعنى فى صورة حسية رائعة موجزة لها وقعها فى النفس سواء أكانت تشبيها أو قولا مرسلا.

وبعبارة أخرى «تشبيه شيء بشىء فى حكمه وتقريب المعقول من المحسوس أو أحد المحسوسين من الآخر»[5] - للفهم ولتوضيح المعنى وتقريبه للأذهان.

---

(١) مباحث فى علوم القرآن لمناع القطان ص ٢٨٢.

(٢) من الآية ٣٥ الرعد.

(٣) مفردات الراغب ص٤٨٢.

(٤) مفردات الراغب ص٤٨٢.

(٥) مباحث فى علوم القرآن لمناع القطان ص٢٨٣.

٣ - ويقول السيوطى: «أمثال القرآن قسمان: أحدهما ظاهر مُصرّح به كالتشبيه الصريح وآخر كامن لاذكر للمثل فيه»[١].

(١) فالتشبيه الصريح كقوله تعالي: ﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾[٢].

فضرب لنا مثل الدنيا بالماء الذى نزل من السماء فتسبّبَ فى خُضْرة الأرض وعمارها ولما جاء أمر ربك جعلها صَعِيدا جُرُزاً لاحياة فيها كذلك يضرب الله الأمثال للعظة والتذكير والتدبر.

(ب) ومن الأمثال مايجىء على طريقة التشبيه الضمنى كقوله تعالي: ﴿ولايغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه﴾[٣] فليس فيه هنا تشبيه صريح.

(ج) ومنها مالم يَشْتمل على تشبيه ولا استعارة كقوله تعالى: ﴿يا أيها الناس ضُرب مثل فاستمعوا له إن الذين تَدْعون من دون الله لن يخلقوا ذُبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لايستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب﴾[٤] - فقوله إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا، قد سماه الله مثلا وليس فيه استعارة ولاتشبيه[٥]، ذلك لأنه تعالى صرح مباشرة بأنه سيضرب مثلا فَلِنَسْتَمِعَ إليه لِنتعظ ونعتبر.

(د) الأمثال فى القرآن ثلاثة أنواع:

(أ) الأمثال المصرّحة.

(ب) الأمثال الكامنة.

(جـ) الأمثال المرسلة.

---

(١) الإتقان للسيوطى جـ٢ ص١٣٢.

(٢) الآية ٢٤ يونس.

(٣) من الآية ١٢ الحجرات.

(٤) الآية ٧٣ الحج.

(٥) مباحث فى علوم القرآن لمناع القطان ص٢٨٣، ص٢٨٤.

النوع الأول : **الأمثال المصرّحة**: وهى ما صُرِّح فيها بلفظ المثل أو مايدل على التشبيه وهى كثيرة فى القرآن الكريم:

ذكر الله مثلين أحدهما مائياً والثانى ناريا فى سورة الرعد للحق والباطل، فقال تعالى: **﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزّبد فيذهب جُفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال﴾**[1] .

فقد شبَّه الله عز وجل الوحى الذى أنزله من السماء لحياة القلوب بالماء الذى أنزله لحياة الأرض بالنبات، وشبه القلوب بالأودية، والسيل إذا جرى فى الأودية احتمل زبدا و غُثاء (يعنى رغوة) - فكذلك الهدى والعلم إذا سرى فى القلوب أثار ما فيها من الشهوات والشك ليذهب بها ويبقى ما فيها من يقين فيمكث ويبقى وهذا هو المثل المائى (أنزل من السماء ماء .) وهكذا يضرب الله الحق والباطل.

وذكر المثل النارى فى قوله ومما يُوقِدُون عليه فى النار، فعند سبك المعادن تخرج النار مافيها من الخَبث وتفصله عن الجوهر الذى يُنتفع به، فيذهب الخبث جفُاء يعنى بعيدا فكذلك الشهوات يطرحها قلب المؤمن ويجفوها يعنى يُبْعدها كما يطرح السيل والنار ذلك الزبد وذاك الخبث.

فكما اضمحل هذا الزبد فصار جُفاءً يعنى بعيدا لاينتفع به ولا تُرْجى بركته، كذلك يَضْمَحِلّ الباطل عن أهله، وكما مكث هذا الماء فى الأرض فامْرعَت وربَت بركته وأخرجت نباتها وكذلك المعدن حين أدخل النار فأذهب خبثه كذلك يَبْقى الحق لأهله.

النوع الثاني من الأمثال الكامنة: وهى التى لم يصرح فيها بلفظ التمثيل ولكنها تدل على معان رائعة فى إيجاز يكون لها وقعها إذا نقلت إلى ما يُشبهها ويمثلون لهذا النوع بأمثلة منها:

١ - ما فى معنى قولهم : خير الأمور الوسط:

---

(١) الآية ١٧ الرعد.

(أ) يتمثل فى قوله تعالى﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما﴾[1] يعنى معتدلا، وسطا بين إفراط وتفريط.

(ب) ومن هذا القبيل (ولاتجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كُلَّ البَسْطِ) [2] يعنى كن وسطا فى الإنفاق لاتُبذِّر ولا تُقتر.

٢ - كذلك من الأمثال ما فى معنى قولهم: «ليس الخَبر كالمعاينة:

ويتمثل فى قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى﴾[3]،[4] .

٣ -.ما فى معنى قولهم (كما تُدين تُدان):

يتمثل فى قوله تعالي: ﴿من يعمل سوءا يُجْز به﴾[5] - يعنى: ﴿وجزاء سيئة مثلها، فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾[6] .

٤ - ما فى معنى قولهم «لا يُلْدَغ المؤمن من جحر مرتين»[7] .

بمعنى أن المؤمن كيِّس فَطِن حَذِر - ويتمثل فى قوله تعالى على لسان يعقوب لأولاده ﴿قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل﴾[8] .

قال لهم يعقوب، كيف آمنكم على بنيامين، وقد فعلتم بأخيه يوسف ما فعلتم بعد أن ضمنتم لى حفظه، ثم خنتم العهد؟ فأخاف أن تكيدوا له كما كِدْتم لأخيه؟ فأنا لا أثق بكم ولا بحفظكم، وإنما أثق بحفظ الله تعالى .

---

(١) آية ٦٧ الفرقان.

(٢) من الآية ٢٩ الإسراء.

(٣) من الآية ٢٦٠ البقرة.

(٤) الإتقان للسيوطى جـ٢ ص١٣٢ إلى ١٣٣، ومباحث فى علوم القرآن ص٢٨٥، ص ٢٨٦

(٥) من الآية ٢٦٠ البقرة.

(٦) من الآية ٤٠ الشورى.

(٧) الإتقان للسيوطى جـ٢ ص ١٣٣.

(٨) من الآية ٦٤ يوسف.

النوع الثالث : «**الأمثال المرسلة فى القرآن**:وهذا نوع بديعىّ يتمثَّل فى جُمَلٍ أرسلت إرسالا من غير تصريح بلفظ التشبيه فهى آيات جارية مجرى الأمثال لم يسبق لها مثيل فى العربية»(١) وهذا من إبداع القرآن الكريم. ومن أمثلة ذلك:

١ - قوله تعالى (الآن حَصْحَصَ الحق)(٢)يعنى ظهر وتبلَّج وجاء وتكشف.

٢ - وقوله سبحانه﴿**ليس لها من دون الله كاشفة**﴾(٣) - يعنى أن الله وحده هو كاشف الضُّر والبلوى، أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء.

٣ - ﴿**ولايحيق المكر السىء إلا بأهله**﴾(٤) - ويُقْصد به من حفر لأخيه حُفْرة وقع فيها.

٤ - ﴿**قل كل يعمل على شاكلته**﴾(٥) - ويُقْصد به كل مُيَسَّر لما خُلق له من خير أو شر، فطوبى لمن جعله الله مفتاحا للخير مغلاقا للشر وشر لمن جعله الله مغلاقا للخير مفتاحا للشر.

٥ - ﴿**وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم**﴾(٦) - ومعناها رُبَّ ضارة نافعة، فرب أمر مسخط لك فى عواقبه رضا، الله يفعل مايشاء فلاتكن متعرضاً.

٦ - وقوله سبحانه ﴿**كل نفس بما كسبت رهينة**﴾(٧) فكل إنسان مسئول عن عمله أمام خالقه إن خيرا فخير وإن شرا فشر.

٧ - ﴿**هل جزاء الإحسان إلا الإحسان**﴾(٨) ويُقصد بها ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى يعنى بالثواب والفضل العظيم وجنات النعيم المقيم .

---

(١) مباحث فى علوم القرآن للقطان ص ٢٨٦.

(٢) من الآية ٥١ يوسف.

(٣) الآية ٥٨ النجم.

(٤) من الآية ٤٣ فاطر.

(٥) من الآية ٨٤ الإسراء.

(٦) من الآية ٢١٦ البقرة.

(٧) الآية ٣٨ المدثر.

(٨) من الآية ٦٠ الرحمن.

٨ - ﴿كل حزب بما لديهم فَرحون﴾[١] - يعنى كل فريق مُغتبط بما اتخذه دينا لِنفسه مُعجب به يعتقد أنه الرابح وربما العكس.

٩ - ﴿لِمثل هذا فليعمل العاملون﴾[٢] - يعنى لِمثل هذا الجزاء الكريم فليعمل العاملون، ويجتهد المجتهدون وفى ذلك فليتنافس المتنافسون.

١٠ - ﴿تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى﴾[٣] - يعنى تظنهم مجتمعين على أمر ذوى ألفة واتحاد وهم مختلفون غاية الاختلاف لأن قلوبهم متفرقة.

ولاحرج فى أن يتمثل الإنسان بالقرآن فى مقام الجد كأن يأسف لِنزول كارثة قد تقطعت أسباب كشفها عن الناس فيقول:

﴿ليس لها من دون الله كاشفة﴾[٤] فالله وحده هو المنجّى من المحنة.

---

(١) من الآية ٥٣ المؤمنون.

(٢) الآية ٦١ الصافات.

(٣) من الآية ١٤ الحشر.

(٤) الآية ٥٨ النجم.

فوائد الأمثال

معرفة ماضرب الله من أمثال فى القرآن الكريم الدوال على طاعته المبيّنة لاجتناب نواهيه تتمثل فيما يلى:

١ - التذكير والوعظ والحث على الطاعات والزجر عن المعاصى فيما اشتمل منها على تفاوت فى الثواب أو على إحباط عمل أو نحوه.

٢ - وفائدة الأمثال كذلك للتقرير وتقريب المراد للعقل وتصويره بصورة المحسوس القريب من الفهم كما ضرب الله مثلا لحال المنفق رياء حيث لايحصل من إنفاقه على شيء من الثواب فقال تعالى: **﴿فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا[١] لايقدرون على شيء مما كسبوا﴾[٢]** - يعنى كالحجر الصلب إذا أصابه مطر شديد أذهب عنه التراب فتركه أملسا عاريا.

٣ - كما أن الأمثال تُرينا المتخيل فى صورة المتحقق والمتوهم فى معرض المتيقن، وتصور المعانى بصورة الأشخاص لأنها أثبت فى الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس ومن ثم كان الغرض من المثل كشف المعانى وتشبيه الخفىّ بالجلى والغائب بالمشاهد الحاضر كقوله تعالى: **﴿الذين يأكلون الربّا لايقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس﴾[٣]** - يعنى لايقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع من جنونه يتَعثَّر ويقع.

وكقوله تعالى **﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بِقيعة يحسبْه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئا﴾[٤]**.

كالسراب الذى يُرى فى الصحراء وهو يلمع فى ضوء الشمس كأنه ماء.

٤ - ويُضْرَبُ المثل للترغيب فى أمر حيث يكون الممثل به مما ترغب فيه النفوس،

---

(١) اى حجراً صُلْباً يعنى أمْلَسا: مفردات الراغب ص ٢٩٣.

(٢) من الآية ٢٦٤ البقرة.

(٣) من الآية ٢٧٥ البقرة.

(٤) من الآية ٣٩ النور..

كما ضرب الله مثلا لحال المنفق فى سبيل الله حيث يعود عليه الإنفاق بخير كثير فقال تعالى: ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾[1] - فهو يُضاعف الثواب أضعافا مضاعفة لمن يشاء بقدر علمه بإخلاص المنفق لوجه الله تبارك تعالى.

٥ - كما يضرب المثل للتَّنفير من أمر أو تحقيره حيث يكون الممثل به مما تكرهه النفوس كقوله تعالى: ﴿ولايغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه﴾[2] - فما أقذر أكل لحم إنسان ميّت لاسيما إذا كان شقيقا وبشرا.

٦ - والأمثال أوقع فى النفس وأبلغ فى الوعظ وأقوى فى الزجر وأقوم فى الإقناع وقد أكثر الله الأمثال فى القرآن مُمتنا بها علينا للتذكرة والعبرة فقال: ﴿وضربنا لهم الأمثال﴾[3] كما يستعين بها الداعون والمربّون فى كل عصر ومِصرٍ لنُصرة الحق وإقامة الحجة ويتخذونها من وسائل الإيضاح والتشويق ووسائل التربية فى الترغيب أو التنّفير فى المدح أو الذم وهكذا.

---

(١) من الآية ٢٦١ البقرة.

(٢) من الآية ١٢ الحجرات.

(٣) من الآية ٤٥ إبراهيم.

المبحث الخامس عشر
قصص القرآن الكريم

لانكون مبالغين إذا قلنا أن ثلث القرآن الكريم يحكى قصص السابقين: ﴿**لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ماكان حديثا يُفْترى ولكن تصديق الذى بين يديه**﴾[1]. كانت قصصهم حديثا للعظة والعبرة وماكانت لتختلق سبحان الله ويقول تعالى لنبيه ﷺ : ﴿**فاقصص القصص لعلهم يتفكرون**﴾[2] - لعلهم يتعظون ويتدبّرون ويعقلون والعاقل إلى الخير يسير إن ذلك على الله يسير.

فالأحداث المرتبطة بالأسباب والنتائج تَهْفو إليها النفس ويَشْرئِبُّ إليها السمع فإذا تخلّلتها مواطن العِبرة والعظة فى أخبار الماضين كان حُبُّ الاستطلاع لمعرفتها من أقوى العوامل على رسوخ عِبرتها فى فؤاد الإنسان فَيُصْغى إليها المؤمن بشوق ولهفة وعند ذاك يتأثر بما فيها ويتعظ.

معنى القصص:

يقول الراغب: **القصّ تتبُّع الأثر يقال قصصت أثره أى تتبّعْته**[3] وسار وراءه. وقال على لسان أم موسى ﴿**وقالت لأخته قُصّيه**﴾[4] - أى تتبعى أثره حتى تنظرى من يأخذه.

فالقصص بذلك هى الأخبار المتتبعة قال تعالى : ﴿**إن هذا لهو القصص الحق**﴾[5] فهو صدق اليقين وقال ﴿**لقد كان فى قصصهم عِبرة لأولى الألباب**﴾[6] - يعنى عِظة وذكرى ودروسا مُستفادة لأولى العقول والأفهام والأبصار.

---

(١) من الآية ١١١ سورة يوسف.

(٢) من الآية ١٧٦ الأعراف.

(٣) مفردات الراغب ص ٤١٩ والمصباح المنير جـ٢ ص ٧٧٨.

(٤) من الآية ١١ سورة القصص.

(٥) من الآية ٦٢ آل عمران.

(٦) من الآية ١١١ يوسف.

والقصة مفرد القصص «والقصة تعنى الأمر والخبر والشأن والحال»[١].

والجمع قصص بكسر القاف وقد تجمع بفتحها فاقصص القصص لعلهم يتفكرون، لعلهم يتّعظون .

قال تعالى : ﴿فارتدّا على آثارهما قصصا﴾[٢]- فقصصاً: مصدر - أى رجعا فى طريقهما الذى جاءا منه يتتبعان أثرهما الأول.

وقصص القرآن: إخباره عن أحوال القرون الماضية والأمم السابقة ومافيها من نبوّات وحوادث واقعة وتاريخ البلاد والدّيار، وقد حكى القرآن عنهم صورا ناطقة صادقة لما كانوا عليه فَجَعَلَنَا نعيش وقائعها.

أنواع القصص في القرآن:

ينقسم القصص فى القرآن إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: قصص الأنبياء السابقين، وقد تضمّن دعوتهم إلى قومهم والمعجزات التى أيدهم الله بها وموقف المعاندين منهم وعاقبة المؤمنين والمكذّبين كقصص نوح وإبراهيم وموسى وهارون وعيسى وغيرهم صلوات الله عليهم أجمعين وفى هذا يقول الحق سبحانه:

﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلّم الله موسى تكليما، رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حُجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما)[٣] .

وهذا اعتراف بصدق نبوة هؤلاء الرسل السابقين ﴿لانُفرّق بين أحد من رسله﴾[٤] .

---

(١) المصباح المنير جـ٢ ص ٧٧٩.

(٢) من الآية ٦٤ الكهف.

(٣) الآيات ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥ النساء.

(٤) من الآية ٢٨٥ البقرة.

فلا نقول نؤمن ببعض ونكفر ببعض، بل كل الأنبياء سواء.

النوع الثاني : قصص قرآني يتعلق ببعض الأحداث الغابرة:

كقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت يقول تعالى:

﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فَضْلٍ على الناس ولكن أكثر الناس لايشكرون﴾[1] وهذه من معجزات الله عز وجل لنتفكر ولنتدبر ونشكر الخالق المقتدر.

وطالوت وجالوت: يقول تعالى : **﴿وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه﴾**[2] فهم يعترضون على قضاء الله .

وابنى آدم: **﴿واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قرّبا قُرْبانا﴾**[3] - ولكن الله تقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر.

وأهل الكهف: **﴿أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عَجَبا﴾**[4]. فهى من آيات الله المعجزة العجيبة.

وذى القرنين: **﴿ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا﴾**[5] - سيقص علينا طرفا من قصته.

وقارون: **﴿إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم﴾**[6]

كان من عشيرته وجماعته فتجبّر وتكبّر على قومه.

---

(١) الآية ٢٤٣ البقرة.

(٢) من الآية ٢٤٧ البقرة..

(٣) من الآية ٢٧ المائدة.

(٤) آية ٩ الكهف.

(٥) آية ٨٣ الكهف.

(٦) من الآية ٧٦ القصص.

وأصحاب السبت : ﴿واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يَعْدُون فى السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شُرَّعا﴾[1] .

واسأل يا محمد عليك الصلاة والسلام: اليهود عن أخبار أسلافهم وعن أمر القرية التى كانت بقرب البحر وعلى شاطئه ماذا حل بهم لما عصوا أمر الله واصطادوا يوم السبت؟ ألم يَمْسَخْهم الله قردة وخنازير؟ قال ابن كثير وهذه القرية هى (أيلة) على شاطىء بحر القلزم الأحمر»[2] - الآن إيلات على خليج العقبة عند الأردن.

ومريم : ﴿واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا)[3] .

واذكر يا محمد عليك الصلاة والسلام قصة مريم العجيبة الغريبة الدالة على كمال قدرة الله تعالى المقتدرة.

النوع الثالث: قصص يتعلق بالحوادث التى وقعت فى زمن الرسول ﷺ.

كغزوة بدر: فى سورة آل عمران ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون﴾[4] .

فهو سبحانه يمن على المسلمين بنصره إياهم حين ضعفهم وذلتهم بادىء عهدهم.

وغزوة حُنَيْن : ﴿لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مُدْبرين﴾[5] .

وذلك عندما أصابهم الزَّهْو والغرور بالكثرة.

وغزوة الأحزاب: ﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ماوعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ومازادهم إلا إيمانا وتسليما﴾[6] .

---

(١) من الآية ١٦٣ الأعراف.
(٢) مختصر ابن كثير جـ٢ ص ٥٨ .
(٣) آية ١٦ مريم.
(٤) الآية ١٢٣ آل عمران.
(٥) آية ٢٥ التوبة.
(٦) آية ٢٢ الأحزاب.

ولما رأى المؤمنون الكفار قادمين نحوهم، وقد أحاطوا بهم من كل جانب إحاطة السوار بالمعصم، قالوا : هذا ما وعدنا به الله ورسوله من المحنة والابتلاء ثم النصر على الأعداء بفضله وكرمه.

والهجرة: **﴿إلا تَنْصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما فى الغار﴾**[1] .

أى إن لا تنصروا رسوله فإن الله ناصره وحافظه وجواب الشرط محذوف تقديره، فسينصره الله دلّ عليه قوله فقد نصره الله، والمعنى إن لم تنصروه أنتم فسينصره الله الذى نصره حين كان ثانى اثنين، حيث لم يكن معه أنصار ولا أعوان حين خروجه من مكة مُهَاجراً إلى المدينة وحينما كان مختبئا مع صاحبه أبى بكر فى الغار بالجبل.

والإسراء: **﴿سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾**[2] .

يعنى تنّزه وتقدس عما لايليق بجلاله، الله العلى الكبير انتقل برسوله محمد ﷺ فى جزء من الليل من المسجد الحرام من مكة إلى بيت المقدس المسجد الأقصى لبعد المسافة بينهما وليلا بلفظ التنكير لتقليل مدة الإسراء.

وغير ذلك من أحداث تدل على تأييد الله لرسوله ﷺ وصدق الحق إذ يقول **﴿إنا لننصر رُسُلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾**[3] يوم يقوم العباد لرب العباد.

مميزات القصص القرآني بوجه عام:

١ - ويتميز القصص القرآنى بأنه مع تناوله لحقائق الكون ومشاهده تناولا فنيا يثير الشعور والوجدان لدى العامة والخاصة فهو يتكفل بحماية الحقائق العلمية للظاهرات الكونية لأنه كلام خالق البشر وخالق اللغة التى بها يتكلمون فكلامه سبحانه فى قصصه له كل مقومات الحبْك الفنى للقصة دون مساس بالواقع التاريخى أو الحقيقة العلمية مساسا يتناقض معهما.

---

(١) من الآية ٤٠ التوبة.

(٢) من الآية ١ الإسراء.

(٣) الآية ٥١ غافر.

٢ - «ومن الخصائص الفنية للقصة تنوّع طريقة العَرْض والمفاجأة وإيجاد فجوات بين أطراف القصة تُثير التساؤل فى النفس فيملؤها السامع أو الرائى بخياله ثم التنويع فى الفواصل»[١] مما يَشُدّ الانتباه والفكر والتأمل.

٣ - كما يتميز الأسلوب القرآنى المعجز بوجه عام بالذروة فى البلاغة والفصاحة والاستعانة بألوان البديع المختلفة وأحيانا السَّجع المتنوع وغير المتكلف والذى لايُخلّ بالمعنى.

٤ - ويشتمل القرآن الكريم على كثير من القصص الذى تكرر فى غير موضع فالقصة الواحدة يتعدد ذكرها فى القرآن، وتُعرض فى صور مختلفة فى التقديم والتأخير والإيجاز والإطناب وما شابه ذلك ومن حكمة هذا:

(أ) بيان بلاغة القرآن الرائعة فى أعلى مراتبها، فمن خصائص البلاغة إبراز المعنى الواحد فى صور مختلفة والقصة المتكررة ترد فى كل موضع بأسلوب يتمايز عن الآخر وتُصاغ فى قالب غير القالب ولا يَملُّ الإنسان من تكرارها بل تتجدد فى نفسه معان لاتحصل له بقراءتها فى المواضع الأخرى.

(ب) قوة الإعجاز - فإيراد المعنى الواحد فى صور متعددة مع عجز العرب عن الإتيان بصورة منها أبلغ فى التحدى.

(ج) الاهتمام بشأن القصة لتمكين عظتها فى النفس فإن التكرار من طرق التأكيد وأمارات الاهتمام كما هو الحال فى قصة موسى مع فرعون لأنها تمثل الصراع بين الحق والباطل أتم تمثيل.

(د) اختلاف الغاية التى تساق من أجلها القصة فتذكر بعض معانيها الوافية بالغرض فى مقام وتبرز معان أخرى فى سائر المقامات حسب اختلاف مقتضيات الأحوال.

وصورة تكرار القصة ببعض معانيها وبأسلوب فيه بعض التغيير مع الحفاظ على ذروة الروعة البلاغية مما يدل على الإعجاز فى حد ذاته وأن هذا لايتوفر لأى كاتب من

---

(١) بغية المسلم من تفسير سورة مريم للأستاذ الدكتور / حمودة داود. ص١٦.

البشر كائنا من كان، كما أن تكرار القصة فيه ضرب من ضروب الأدب الذى تَهْفو إليه النفس ويصغى إليه السمع فترسخ عِبَره فى الأفئدة والضمائر.

الأهداف والفوائد من وراء القصص القرآني:

١ - يتمثل الهدف من القصص القرآنى فى قوله سبحانه:

﴿لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ماكان حديثا يُفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾(١).

فما كان هذا القرآن أخبارا تروى أو أحاديثَ تُخْتلق ولكنه مُصَدّق لما سبقه من كتب سماوية مُنْزلة من قبل وتبيان لكل الأحكام من حلال وحرام وشرائع هداية من الضلالة ورحمة من العذاب لِقَوم يُصدقون به ويعملون بأوامره ونواهيه.

فهو قصص يهدف أولا إلى تحقيق العِظة والعِبرة والهداية ومع ذلك فليس فيه كذب أو شيء من نسج الخيال بل هو التصوير الأمين للواقع التاريخى والتفصيل الدقيق له وهو الهداية والرحمة لقوم يؤمنون ويُصدقون فيتعظون ويتذكرون والذكرى تنفع المؤمنين.

٢ - إيضاح أسس الدعوة إلى الله **﴿قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى﴾**(٢) - ومعنى البصيرة يعنى الهداية من الله، بالتأسى والاقتداء بالمجاهدين فى سبيل الله والذين لايخافون فى الله لومة لائم.

٣ - بيان أصول الشرائع التى بعث بها كل نبى **﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نُوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾**(٣) - ليزداد المؤمنون إيمانا مع إيمانهم، ولِتُثَبّتَ قلب الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين على دين الله القويم وشرعه المستقيم ولِتقوى ثقتهم بنصرة الحق وجنده وخذلان الباطل وحزبه **﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾**(٤) يوم يقوم الناس لرب العالمين شهودا على بعضهم

---

(١) من الآية ١١١ يوسف.

(٢) من الآية ١٠٨ يوسف.

(٣) آية ٢٥ الأنبياء.

(٤) آية ٥١ غافر.

البعض - وصدق الحق إذ يقول **﴿وكُلاً نَقُصّ عليك من أنباء الرسل مـا نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾**[1] - ذكرى لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا.

٤ - تصديق الأنبياء السابقين وإحياء ذكراهم وتَخْليد آثارهم : **﴿شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك وماوصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه﴾**[2] - اجعلوا الدين قائما مستمرا مَحْفوظا من غير خلاف فيه ولا اضطراب.

٥ - إظهار صدق الرسول محمد ﷺ فى دعوته بما أخبر به عن أحوال الماضين عبر القرون والأجيال يقول سبحانه: **﴿يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم﴾**[3]، ويقول : **﴿والذى أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مُصدقا لما بين يديه إن الله بعباده لخبير بصير﴾**[4] .

والذى أوحيناه إليك يامحمد من الكتاب المنّزل - القرآن - هو الحق الذى لاشك فيه ولاريب فى صدقه وهو مُصّدق لما سبقه من الكتب السماوية السابقة وفى هذا إشارة إلى أنه وحى فما كان عليه السلام قارئا ولا كاتبا أتى ببيان ما فى كتب الله، ولايكون ذلك إلا من الله فهو جل وعلا خبير بعباده مُحيط بِبَواطن أمورهم وظواهرها بصير بهم لاتخفى عليه خافية من شئونهم.

٦ - مقارعته أهل الكتاب بالحجة فيما كتموه من البينات والهدى وتحديه لهم بما كان فى كتبهم قبل التحريف والتبديل كقوله تعالى : **﴿كل الطعام كان حِلاً لبنى إسرائيل إلا ماحرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين﴾**[5] .

---

(١) الآية ١٢٠ هود.

(٢) من الآية ١٣ الشورى.

(٣) من الآية ١٧٠ النساء.

(٤) آية ٣١ فاطر.

(٥) آية ٩٣ آل عمران.

وذلك دليل صدق على أن منزل هذا القـرآن إنما هو العليم الخبيـر الذى نزل التوراة والإنجيل من قبل.

٧ - كما أن أثر القصص الـقرآنى فى التربية والتهذيب واضح لامـراء فيه، فالناس بالفطرة والسليقـة يميلون إلى سماع الحكاية ويُصـغون إلى رواية القصـة وتعى ذاكرتهم مايُروى لهم فيقُصّوه، وهذه الظاهرة الفطرية النفسيـة ينبغى للمربين أن يفيدوا منها فى مجالات التعليم لاسيما التهذيب الدينى.

المبحث السادس عشر
القَسم فى القرآن الكريم

النفس الصافية يكفيها فى الانصياع إلى الحق اللمحة أو الإشارة وأما غيرها ففى حاجة إلى صيغ التأكيد والوعيد والتهديد حتى يتزعزع نكيُرها.

القسم فى الخطاب من أساليب التأكيد التى يتخلَّلها البرهان المُفحم والاستدراج بالخصم إلى الاعتراف بِما يَجْحَدُ.

وقد استفتح المولى عز وجل خمس عشرة سورة من القرآن بالقسم هي: (والصافات صفًا، والذاريات ذَرْوا والطور وكتاب مسطور، والنجم إذا هوى، والمرسلات عرفا، والنازعات غَرْقا، والسماء ذات البروج، والسماء والطارق، والفجر وليال عشر، والشمس وضحاها، والليل إذا يَغْشى، والضحى والليل إذا سجى، والتين والزيتون، والعَاديات ضَبْحا، والعصر إن الإنسان لَفِى خُسْر)[1] .

ونلاحظ أنها جميعا سور مكية لتقرع أهل مكة بالدليل والحجة والقسم المفحم.

مفهوم القسم والحلف:

يقول الراغب «وأقسم يعنى حلف»[2].

فالقسم بفتح السين اليمين وجمعه أقسام يقال: أقسم بالله واستقسمه بالله وتقاسم القوم يعنى تحَالفُوا.

يقول الراغب: «وقاسمته وتقاسما»[3] وفى القرآن الكريم: ﴿وقاسمهما إنى لَكُمَا لِمن الناصحين﴾[4] - يعنى أن الشيطان حلف لآدم وحواء أنه ناصح لهما صادق معهما.

---

(١) البرها للزركشي جـ ١ ص ١٧٩.

(٢) مفردات الراغب ص ٤١٨.

(٣) مفردات الراغب ص٤١٨.

(٤) من الآية ٣١ الأعراف.

ويقول تعالى: ﴿قالوا تقاسموا بالله﴾[1] يعنى احلفوا بالله.

والمُقْتَسِمُ هو الحالف: ومنه قوله تعالى: ﴿كما أنزلنا على المقتسمين﴾[2] وهم الذين تحالفوا وتقاسموا على كيد الرسول ﷺ.

وعند الراغب: (والحِلْف العهد بين القوم والمحالفة المعاهدة، والحِلف أصله اليمين الذى يأخذ بعضهم من بعض بها العهد ثم عُبِّر به عن كل يمين، قال سبحانه: ﴿ولاتُطع كل حلاف مهين﴾[3] - يعنى مكثر للحلف، وقال: ﴿يحلفون بالله ماقالوا...﴾[4])[5].

وقد استحلفته بالله على كذا ويراد بالحلف اليمين، واليمين العقد بالعزم والنية وسُمِّيت يمينا تأكيدا للعقد وأصل اليمين وضع اليد اليمنى فى اليد اليسرى لتوثيق ما اتفق عليه بينهم - بأمانة ووفاء، فلا دين لمن لاعهد له لمن لايوفى بما عاهد عليه.

والقسم واليمين واحد، ويعرف بأنه ربط النفس بالامتناع عن شىء أو الإقدام عليه بمعنى مُعَظَّم عند الحالف حقيقة أو اعتقادا على اعتقاد فى نفس الحالف.

والمُعظم عند الحالف حقيقة يكون بالله أو بأحد صفاته، وأما المعظم اعتقادا فهو ما يُتصور أن له مكانة فى نفس الحالف، ولايجوز شرعا الحلف بغير الله لأنه ضَرْب من الشرك لقول الرسول ﷺ: «من حَلَف بغير الله فقد كفر أو أشرك»[6]، يعنى أنه اتخذ نظيراً لله فى التقديس وستَر حقيقة التقديس الأجلّ والأوْفى التى هى لِذات الله وحده سبحانه وتعالى.

---

(١) من الآية ٤٩ النمل.

(٢) من الآية ٩٠ الحجر.

(٣) آية ١٠ القلم.

(٤) من الآية ٧٤ التوبة.

(٥) مفردات الراغب ص١٢٨.

(٦) سنن الترمذى جـ ٤ ص ٩٤ - ٢١ - كتاب النزور والأيمان عن عبدالله ابن عمر.

أركان القَسم خمسة:

١ - **أدوات القسم هي**: الواو والباء والتاء - كـأن تقول: واللهِ وبالله وتالله، والتاء لاتدخل إلا على لفظ الجلالة فى القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿**تالله لقد أرْسلنا إلى أمم من قبلك**﴾[1] - ومثال الواو ﴿**والله ربنا ماكنَّا مشركين**[2]﴾ والباء: ﴿**يابنى لاتشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم**﴾[3] - كما جـاء فى البرهان[4] فالقراءة التى تجـيز الوقف بعد لاتشرك ثم البدء بالله إن الشرك.

٢ - **مُقسم به**: والذى يلزم أن يكون جليلا لدى المقسم كـذات لَفْظِ الجلالة أو أحد صفـاته وتتقدمه أداة القـسم وهى الواو والباء والتاء، وقـد تجتمع مع فعل القـسم كأن تقول: أقسم بالله أو أحلف بالله.

٣ - **مقسم عليه**: وهو جواب الـقسم الذى ورد القـسم لنفيـه أو إثباته وقـد يذكر الجواب أو يحذف إذا دلّ عليـه السـياق وذلك يكون أوجز وأبلغ كقوله سـبحانه : ﴿**قَ والقرآن المجيد**[5]﴾ ، ﴿**صَ. والقرآن ذى الذكر**﴾[6] فإن كُلاً منهما تعظيم لِشأن القرآن الذى يُذَكِّر العباد بما يَنْفَعهم وما يضرهم والجواب: إن القرآن لحقّ.

وقد يُشير إلى جواب القسم السِّياق الوارد فى النص كقوله سبحانه: ﴿**لا أقسم بيوم القيامة**﴾[7] - فالجواب محذوف وتقديره: لِتُبْعثن ولَتُحاسَبُنّ وقد دَلّ على ذلكم الجواب قوله جل شأنه: ﴿**أيحسب الإنسان ألن نجْمع عظامه**﴾[8] والاستفهام للتوبيخ والتقريع، أى أيظن هذا الانسان الكافـر المكذب للبعث والنشور، أن لن نقدر على جـمع عظامه بعد تفرقها؟

---

(١) من الآية ٦٣ النحل.

(٢) من الآية ٢٣ الأنعام.

(٣) من الآية ١٣ لقمان.

(٤) البرهان للزركشى جـ ٣ ص٥٤٤.

(٥) الآية ١ سورة ق.

(٦) الآية ١ سورة ص.

(٧) آية ١ سورة القيامة.

(٨) آية ٣ سورة القيامة.

وفى حالة وقوع جواب القسم فعلا ماضيا لحقت به قد ومثاله قوله تعالى: ﴿والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها والنهار إذا جلّاها والليل إذا يغشاها والسماء ومابناها والأرض وماطحاها ونَفْس وماسواها فألهمها فجورها وتَقْواها قد أفلح من زكّاها﴾[1] - فالآية الأخيرة هى جواب القسم، وقد اقترن الفعل الماضى بقد حَرْف التحقيق، كما هو مشاهد.

٤ - فعل القسم: مثل أقسم أو أحلف ويتعدى الفعل فى كل منهما بالباء كقوله تعالى: ﴿وأقسموا بالله جَهْد أيمانهم﴾[2] - يعنى حلف المنافقون بغاية الأيمان المغلظة وقوله سبحانه: ﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم﴾[3] يعنى ويقسمون بالله لكم إنهم لمؤمنون مِثلكم وماهم بمؤمنين لكفر قلوبهم.

وقد أدخلت (لا) النافية على فعل القسم فى بعض المواضع كقوله تعالى: ﴿لاأقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللّوامة﴾[4].

فقيل: لا فى الموضعين نافية لمحذوف يُناسب المقام والتقدير مثلا لا صحة لما تَزعُمون أنه لاحساب ولاعقاب ثم استأنف فقال: أقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة إنكم ستبعثون، وقيل لا لِنفى القسم كأنه قال: لا أقسم عليك بذلك اليوم وتلك النفس، ولكنى أسألك غير مقسم أتحسب أنا لانجمع عظامك إذا تفرقت بالموت؟ إنّ الأمر من الظهور بحيث لايحتاج إلى قسم - وقيل لا زائدة وجواب القسم فى الآية المذكورة مَحذوف دَلّ عليه قوله: أيحسب الإنسان والتقدير لَتُبْعثُن ولتحاسَبُن[5] يوم القيامة عما كنتم تعملون.

وقد يُحْذَف فعل القسم ويكتفى بالواو، كما فى قوله جل شأنه: ﴿والليل إذا يَغْشى﴾[6] وتقديره ورَبِّ الليل إذا يَغْشى وأرْخى سُدوله على الكون.

---

(١) الآيات من ١ إلى ٩سورة الضحى.

(٢) من الآية ٥٣ النور.

(٣) من الآية ٥٦ التوبة.

(٤) الآية ١, ٢ سورة القيامة.

(٥) الإتقان للسيوطى جـ٢ ص ١٣٥ ومباحث فى علوم القرآن ص٢٩٣.

(٦) الآية ١ سورة الليل.

وأكثر الأقسام المحذوفة الفعل فى القرآن لاتكون إلا بالواو فإذا ذكرت الباء أتى بالفعل كقوله تعالى ﴿وأقسموا بالله جَهد أيمانهم﴾[1] وأيضا: ﴿يحلفون بالله لكم ليُرْضوكم﴾[2] يحلفون لكم أنهم ماقالوا شيئا فيه انتقاص للرسول ليرضوكم بتلك الأيمان.

«ولاتجيء الباء والفعل محذوف إلا قليلا وعليه حمل بعضهم قوله تعالى: ﴿يابنىّ لاتشرك بالله﴾[3] وقال الباء باء القسم وليست متعلقة بـ تشرك وكأنه يقول: يابنى لاتشرك - ثم ابتدأ فقال بالله لاتشرك وحذف لاتشرك لدِلالة الكلام عليه»[4].

وهذا من روعة بلاغة القرآن الكريم حين يحتمل النص القسم وغيره:

٥ - وجود علاقة بين المقسم به والمقسم عليه: وهى الرابطة والمناسبة بينهما مثل مانقرؤه فى أول سورة الضحى حيث أقسم الله بضوء النهار بعد ظُلمة الليل على ضوء الوحى ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه، فالرابطة هى ضوء النهار ونزول الوحى وكذلك هى ظلمة الليل وانقطاع الوحى - ذلك أن الوحى قد انقطع عن رسول الله ﷺ فترة، وكان ذلك كالحجاب بين الوحى ورسول الله ﷺ، وقد قال كفار قريش حينذاك ودّع محمد ربه وقلاه[5] - يعنى جفاه وتركه.

وهذه مناسبة لطيفة لتعليل سياق القسم فى هذه الآيات الكريمات وهى صورة من صور الإعجاز البلاغى فى القرآن الكريم، فسبحان من أحكم بيانه.

أنواع القسم:

والقسم الذى هو تأكيد لأمر ما يشمل أنواعا حسب ما إذا كان ظاهرًا أو منويا مضمرا، يقول الزركشى «القسم عند النحويين جملة يؤكد بها الخبر، حتى إنهم جعلوا قوله تعالى: ﴿والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾[6] - جعلوها قسما وإن كان فيه إخبار

---

(١) من الآية ٣٨ النحل.

(٢) من الآية ٦٢ التوبة.

(٣) من الآية ١٣ لقمان.

(٤) البرهان للزركشى جـ ٣ ص ٤٣، ص٤٤.

(٥) التبيان فى أقسام القرآن لابن القيم ص ٥٠٣.

(٦) من الآية ١ المنافقون.

إلا أنه لما جاء توكيدا للخبر سُمِّى قسما ولايكون القسم إلا باسم مُعظَّم» [1] باسم من أسماء الله تعالى أو بأحد صفاته أو بالقرآن الكريم.

ونظرا لعدم وجود قراءة متواترة بخفضِ لَفْظ الجلالة بالواو السابقة عليها فلا يُعتبر هذا فى نظرنا قسما على سبيل الحقيقة وإن كان البعض قد اعتبره من قبيل القسم فهذا على سبيل التجوز والله أعلم.

والقسم: إما ظاهر وإما مُضْمر:

١ - **فالظاهر**: هو ماصرح فيه بفعل القسم وبالمقسم عليه ومنه ما حذف فيه فعل القسم كما هو الغالب اكتفاء بالجار كالباء أو الواو أو التاء.

٢ - «**والقسم المضمر**: هو مالم يصرح فيه بفعل القسم ولا بالمقسم به ولا بأداة القسم، وإنما تدل عليه اللام المؤكدة التى تدخل على جواب القسم» [2] كقوله تعالى : **﴿لتُبْلَون فى أموالكم وأنفسكم﴾** [3] - أى والله لتبلون والابتلاء هو الامتحان والاختبار.

وقوله سبحانه : **﴿وإن منكم إلا واردها﴾** [4] - تقديره والله كذلك مامنكم من أحد إلا وسَيَرِدُ على النار المؤمن للعبور والكافر للقرار، نسأل الله السلامة.

أنواع المقسم به وأنواع المقسم عليه:

أولا: أنواع المقسم به:

(أ) القسم بذات الله عز وجل وهو كثير ومنه قوله تعالى **﴿والله ربِّنا ما كُنَّا مُشركين﴾** [5]- وقوله سبحانه: **(تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك﴾** [6] .

---

(١) البرهان للزركشى جـ٣ ص ٤٠.
(٢) البرهان للزركشى جـ٣ ص٤٣.
(٣) من الآية ٨٦ آل عمران.
(٤) من الآية ٧١ مريم.
(٥) من الآية ٢٣ الأنعام.
(٦) من الآية ٦٣ النحل.

(ب) والآيات التالية أقسم فيها المولى عز وجل بعنوان الربوبية مثل:

(١) ﴿فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون﴾ [١] .

أى أقسم برب السماء والأرض إن ما توعدون به من الرزق والبعث والنشور لحق كائن لا محالة مثل نطقكم، فكما لاتشكون فى نطقكم حين تنطقون فكذلك يجب ألا تشكوا فى الرزق والبعث والنشور.

٢ -. ﴿ويستنبئونك أحق هو قل إى وربى إنه لحق وما أنتم بمعجزين﴾[٢] .

أى ويستخبرونك يا محمد فيقولون: أحق ماوعدتنا به من العذاب والبعث؟

قل نعم والله إنه كائن لاشك فيه ولستم بمعجزين الله بهرب أو امتناع من العذاب، بل أنتم فى قبضته وسلطانه.

٣ - ﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن﴾[٣] .

ادعى كفّار مكة وظنوا أن الله لن يبعثهم من قُبورهم بعد موتهم أبداء قل لهم يا محمد ليس الأمر كما زعمتم، واقسم بربى لتخرجن من قبوركم أحياء ولتبعثنّ .

٤ - ﴿فو ربك لنحشرنهم والشياطين﴾[٤] .

فوربك يا محمد عليك الصلاة والسلام لنحشرنّ هؤلاء المكذبين بالبعث مع الشياطين الذين أغووهم.

٥ - ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾ [٥] .

فأقسم بربك يامحمد عليك الصلاة والسلام لنسألن الخلائق أجمعين عما كانوا يعملون فى الدنيا.

---

(١) من الآية ٢٣ الذاريات.

(٢) من الآية ٥٣ يونس.

(٣) من الآية ٧ التغابن.

(٤) من الآية ٦٨ مريم.

(٥) آية ٩٢، ٩٣ الحجر.

٦ - ﴿فلا وربك لايُؤْمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾[١] .

اللام لتأكـيد القسم أى فـوربك يامحمـد عليك الصلاة والسـلام لايكونون مؤمنين حتى يجعلوك حكما بينهم ويرضوا بحكمك فيما تنازعوا فيه واختلفوا من الأمور.

٧ - ﴿فلا أقسم بِرَبِّ المشارق والمغارب إنا لقادرون على أن نُبَدِّل خيرا منهم﴾[٢] .

فأقسم برب مشارق الشمس والقمر والكواكب ومغاربها فى أفلاكها إنا قادرون على إهلاكهم واستبدالهم بقوم أفضل منهم وأطوع لله.

والقسم بعنوان الربوبية يؤكد إثبات رسالة رسولنا محمد صلوات الله وسلامه عليه، وأن الله هو الذى تولى تَرْبيته، كما يُفيد أن هـذه المخلوقات مربوبة ومقهورة لله وحده وأنها تحت سُلطانه وأن مصدر التربية المُثلى هو من الله جلّ جلاله.

جـ - وورد القسم بأحد صفـات الله عز وجل بعزّته فى حكاية الله سبحانه عن إبليس فى قـوله تعـالى : ﴿قـال فـبعـزتـك لأغْوينّهم أجـمـعـين إلا عبّادك منهم المخلصين﴾[٣] - فقد أقسم ليضلنهم أجمعين إلا من شاء الله له الهداية.

(د) القسم بالنبى ﷺ فى قوله سبحانه:

﴿لَعَمْرك إنهم لَفِى سكْرتهم يَعْمهون﴾ [٤] - فهو سبحانه يُقسم بحياة رسوله الكريم ﷺ انهم فى ضلالهم يتخبّطون أولئك الذين يكذّبونه.

«هذا هو القسم الوحيد بنبى فى القرآن الكريم وقد أقسم الله به ليِعَرْف الناس قَدْر رسوله ﷺ ومكانته عنده وأنه بعثـه رحمة للعالمين»[٥] بشيرا ونذيرا، وأقسم الله تعالى بحياته إعزازا وتقديرا.

(هـ) القسم بالملائكة فى قوله جل شانه: ﴿والصافّات صفا فالزاجرات زَجْرا﴾[٦]

---

(١) من الآية ٦٥ النساء .

(٢) الآية ٤٠ وجزء ٤١ من المعارج.

(٣) الآية ٨٢، ٨٣ ص.

(٤) الآية ٧٢ الحجر.

(٥) الإتقان للسيوطى جـ٢ ، ص ١٣٣ .

(٦) الآيات ١، ٢ من سورة الصافات.

افتتح الله تعالى هذه السورة بالقسم ببعض مخـلوقاته إظهارا لعظم شأنها وكبر فوائدها وتنبيها للعباد على جلالة قدرها.

قال الرازى: «هم الملائكة يقفون صُفُوفاً فى السموات لأداء العبادة منتظرين أمْرَ الله لهم وكل منهم لـه صَفّ معلوم لا يتـعـداه، والزاجـرات هم الملائكة الذين يَزْجـرون المخلصين من المؤمنين عن المعاصى»[1].

فسبحـان من هذا كلامه ونظامه وملكه، وقد أقـسم الله بملائكته لمنزلتهم عند ربّهم وأنهم لايعـصون الله ما أمـرهم ويفعلون مـا يُؤْمَرون وهى تصف فى السـماء للعـبادة والذكر صفوفا.

(و) القسم بما فى الكون من ظاهرات:

ومنها القسم بالنجم فى قوله سبحانه : ﴿والنجم إذا هوى﴾[2] - « والمراد به جنس النجوم التى نراها لامـعة فى السمـاء أو النجوم إذا انتشـرت يوم القيامـة أو انقضت إثر الشياطين وعن مجاهد وابن عباس أنها الثريا إذا سقطت مع الفجر»[3] ولاتضارب بينها والعبرة بما بَعْد هذا القسـم العظيم الشأن حيث زكى الخـالق سبحانه رسوله الكريم ﷺ حين قال ما ضَلّ صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى.

ومما أقسم الله تعالى به ﴿والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين، لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم﴾[4].

والبلد الأمين هو مكة أم القرى التـى أقسم الله بها آن نزول هذه السورة المكيـة قال ابن القيم «أقـسم الله سبحانه بهذه الأمـكنة الثلاثة العظيمة التى هى من مظاهـر أنبيائه ورسله أصـحاب الشـرائع العظام، فالتين والـزيتون همـا نفس الشجـرتين المعروفـتين ومنبتهما هو أرض بيت المقدس فإنها أكثر البقاع زيتونا وتينا»[5] .

---

(١) التفسـير الكبير للرازى جـ٢٦ ص ١١٤.

(٢) سورة النجم آية ١.

(٣) تفسير الألوسى جـ٢٧ ص ٤٤ بتصرف وابن كثير جـ٤ ص٢٤٦.

(٤) آية ١ - ٣ سورة التين.

(٥) التبيان لابن القيم ص٤٣.

والتين فاكهة وغذاء من أعظم الأغذية فائدة والزيتون منه طعام وزيت مفيد للغاية.

ويقول الزركشي: «والقسم بالشيء لايخرج عن وجهين إما لِفضيلة أو لِمنَفعة، فالفضيلة كقوله تعالى ﴿وطور سينين وهذا البلد الأمين﴾، والمنفعة نحو والتين والزيتون» [1] - وهما غذاءان نافعان مفيدان.

ومنها القسم بالعصر: ﴿والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾[2].

ويراد بالعصر، صلاة العصرِ لفضلها لأنها الصلاة الوسطى، أو هو عصر النبوة الخاتمة أو هو الدهر كله، أقسم الله به لما اشتمل عليه من أحوال المخلوقات التى تُحَيِّرُ الفكر - وخاصة الذين نسوا أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين فَيُحَاسِبَهم على النقير والقطمير والصغير والحقير.

ومما أقسم الله به ﴿والقلم وما يسطرون﴾[3] والمراد به القلم الذى تُسجل به الملائكة أعمال الناس وأقوالهم، أو يراد به القلم المعروف الذى يكتب به.

وقد تضمن القسم آثار القلم من العلوم والمعارف التى تُبَصِّر الناس بشئون دينهم ودنياهم والتى سوف يحاسبون عليها يوم يقوم الأشهاد.

ويجب العلم أن الله سبحانه له أن يقسم بما يشاء من مخلوقاته استدلالا بذلك على قدرته وعظمته ووجوده وليس للمخلوق أن يقسم بها، بل يُقسمِ بخالقها، والهدف من ذلك الا يُعَظِّمها والا يضعها موضع المعبود وذاك إثم كبير.

وذكر صاحب البرهان تساؤلا «كيف أقسم المولى عز وجل بمخلوقاته وقد ورد النهى علينا ألا نقسم بمخلوق؟ قيل فيه ثلاثة أجوبة:

أ - أنه على تقدير حذف مضاف أى: ورب الفجر، ورب التين، وكذلك الباقى.

---

(١) البرهان للزركشي جـ٣ ص ٤٢.

(٢) آيات من ١ - ٣ سورة العصر.

(٣) آية ١ سورة القلم.

ب ـ أن العرب كانت تعظم هذه الأشياء وتُقسم بها فنزل القرآن على مايعرفون.

جـ ـ أن الأقسام إنما تجب بأن يقسم الرجل بما يُعظّمه او بِمن يُجلُّه وهو فوقه والله تعالى ليس شيء فوقه فأقسم تارة بنفسه وتارة بمصنوعاته لأنها تدل على باريء وصانع»[1]- سبحان من تعالت قدرته فلله الحجة البالغة.

ثانيا : أنواع وأحوال المقسم عليه:

والمقسم عليه إما أن يكون جملة خبرية: كقوله سبحانه: **﴿فورب السماء والأرض إنه لحق﴾**[2] - وإما أن يكون جملة طلبية كقوله تعالى : **﴿فوَربِّك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾**[3] .

ويراد بالقسم توكيد وتحقيق المقسم عليه فلابد وأن يكون مما يَحْسن فيه ذلك كالأمور الغائبة والخفية إذا أقسم على ثبوتها.

(أ) أحوال المقسم عليه:

وقد يذكر جواب القسم تارة ويُحذف أخرى والحذف يدل على التَفْخيم والتعظيم، فحذف جواب القسم كقوله تعالى **﴿والفجر وليال عشر والشفع والوتر والليل إذا يسر، هل فى ذلك قسم لِذى حجر﴾**[4] ـ اى لِذى عَقْل.

فالمراد بالقسم أن الزمان المتضمن لِمثل هذه الأعمال أهل أن يُقسم الربّ عز وجلّ به فلا يحتاج إلى جواب وقيل الجواب محذوف أى لتُعذّبن يا كفار مكة، وقيل مذكور وهو قوله **﴿إن ربك لَبِالمرصاد﴾**[5] يعنى أنه سبحانه ليرقب عمل الناس ويحصيه عليهم ويجازيهم به.

والصحيح المناسب أنه لايحتاج إلى جواب فهو أمر بدهى.

---

(١) البرهان للزركشى جـ٣ ص ٤٢.

(٢) من الآية ٢٣ الذاريات.

(٣) آيات ٩٢، ٩٣ الحجر.

(٤) الآيات م ١ - ٦ الفجر.

(٥) آية ١٤ من سورة الفجر..

وقد يُحذف الجواب لدلالة المذكور عليه كقوله تعالى : ﴿لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾ فجواب القسم محذوف دلّ عليه قوله بعد ﴿أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه﴾ والتقدير لتبعثن ولتحاسبن عما عملتم .

وفى هذا مافيه من الترغيب والترهيب استعدادا للقاء الله ولحسابه.

(ب) ومن أنواع المقسم عليه:

١ - إقرار وحدانية الله عز وجل فى مثل قوله تعالى والصافات صفّا، إلى قوله: إن إلهكم لواحد [١] فهو المعبود الواحد القهّار خالق كل شيء.

٢ - إثبات صدق القرآن الكريم فى مثل قوله تعالى ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم، إلى قوله سبحانه : إنه لقرآن كريم﴾[٢] - فهو يقسم على أنه حق وتنزيل من حكيم حميد.

٣ - القسم على صدق الرسول الكريم ﷺ فى رسالته فى قوله جل شأنه : ﴿يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم﴾[٣] .

فهو سبحانه أقسم بالقرآن الكريم تكريما له وإعلاء لقدره كما أقسم بالرسول الأمين صلوات ربى وسلامه عليه تكريما له وإعلاء لقدره كذلك على أنه مرسل حقا وصدقا إلى الناس أجمعين.

٤ - القسم على يوم القيامة أنه حق وصدق وأن الجزاء فيه آت لاريب فيه؛ ومنه قوله تعالى : والذاريات ذروا، إلى قوله سبحانه: إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع[٤] .

هذا قسم أقسم تعالى به أى أقسم بالرياح التى تذرو التراب فتفرقه وتحمل الرمال من مكان إلى مكان - وجواب القسم إنما توعدون لصادق فالذى توعدونه من الثواب والعقاب والحشر والنشر لأمر مصدق محقق لا كذب فيه.

---

(١) الآيات ١ - ٤ الصافات.

(٢) الآيات ٧٥ - ٧٧ الواقعة.

(٣) الآيات ١ - ٤ م سورة يس.

(٤) الآيات من ١ - ٦ الذاريات.

٥ - ومما أقسم الله عليه الاختلاف فى الرأى بشأن النبى الكريم ﷺ قوله تعالى: ﴿والسماء ذات الحبك إنكم لَفى قول مختلف﴾(١) .

أقسم بالسماء المحكمة والبنيان المتقن - إنكم أيها الكفار لَفى قول مُضطرب بشأن الرسول محمد ﷺ فمنهم من قال إنه ساحر أو شاعر أو كاهن وما إلى ذلك.

٦ - القسم على تنوع سعى الناس واختلاف مشاربهم فى قوله سبحانه: ﴿والليل إذا يغشى والنهار إذا تَجلَّى وما خلق الذكر والأنثى إن سعيكم لشتى﴾(٢) مختلف، فمنكم من كان على الهُدى ومنكم من هو فى الضلالة، كما أن حرفكم وأرزاقكم مختلفة كذلك.

٧ - ويقسم الله أيضا على جحود الإنسان فى قوله تعالى: والعاديات ضَبْحا، إلى قوله : إن الإنسان لربِّه لكنود (*)(٣) أقسم بخيل المجاهدين المسرعات على العدو على أن الانسان جاحد لنعم ربِّه شديد الكفران يذكر المصائب ويَنْسى النعم.

٨ - ومما أقسم الله عليه كذلك غفلة الإنسان فى قوله تعالى : ﴿والعصر إن الإنسان لفى خسر﴾(٤) أقسم بالدهر والزمان لما فيه من غرائب على أن الإنسان فى ضياع وخسران إلا من عمل الصالحات على إيمان بالله وبلقائه وثوابه.

٩ - ومن أمثلة المقسم عليه: مشقة الحياة فى قوله جل شأنه: لا أقسم بهذا البلد، أقسم بالبلد الحرام إلى قوله : لقد خلقنا الإنسان فى كبد (**) (٥) - يعنى تعب ومشقة فلايزال يقاسى ألوان الشدائد حتى تصعد روحه إلى بارئه.

وليس هذا الذى ذكرناه على سبيل الحصر لكل أنواع المقسم عليه فى القرآن الكريم ولكن على سبيل المثال وحسب.

---

(١) الآيات ٨،٧ الذاريات.

(٢) الآيات من ١ - ٤ سورة الليل.

(٣) آياتت ١ - ٦ سورة العاديات.

(٤) آيات ١ - ٢ سورة العصر.

(٥) آيات ١ - ٤ سورة البلد.

(*) كند : كفر النعمة : مختار الصحاح ص٥٧٩ .

(**) والكبد : بفتحتين المشقة من المكابدة للشيء وهى تَحمّل المشاق فى فعله: المصباح المنير جـ٢ ص٨٠٥ .

القسم والشرط:

قد يجتمع القسم والشرط فيدخل كل منهما على الآخر فيكون الجواب للمتقدم منهما قسما كان أو شرطا - ويغنى عن جواب الآخر.

فإن تقدم القسم على الشرط كان الجواب للقسم وأغنى عن جواب الشرط كقوله تعالى : ﴿لئن لم تنته لأرجمنك﴾[1] إذ التقدير والله لئن لم تنته من شتم آلهتى لأقذفنك بالحجارة .

واللام الداخلة على الشرط «لئن» ليست بلام القسم ولكنها زائدة وتسمى الموطئة للقسم ويَعْنون بذلك أنها مؤذنة بأن جواب القسم منتظر فالشرط لايصلح أن يكون جوابا للقسم لأن جوابه لايكون إلا خبرا.

والذى يدل على أن الجواب للقسم لا للشرط دخول اللام فيه وأنه ليس بمجزوم بدليل قوله تعالى ﴿ لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله﴾[2] ولو كان « ﴿لايأتون بمثله﴾ جوابا للشرط لكان مجزوما»[3] .

نَخْلُصُ من ذلك أن جملة (لا يأتون بمثله) هى جواب للقسم وحلّت محل جواب الشرط كذلك - فسبحان من أحكم التعبير بصورة بلاغية فائقة ومعجزة.

---

(١) من الآية ٤٦ مريم.

(٢) من الآية ٨٨ الإسراء.

(٣) البرهان للزركشى جـ٣ ص٤٦ .

إجراء بعض الأفعال مجري القسم:

إذا كان القسم يأتى لتأكيد المقسم عليه فإن بعض الأفعال يجرى مجراه إذا كان سياق الكلام فى معناه كقوله تعالى : ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتُبيّننه للناس﴾[1] .

فاللام فى قوله : لتُبيّننّه للناس، لام القسم والجملة بعدها جواب القسم لأن أخذ الميثاق يعنى الاستحلاف - يقصد الحَلِف لتأكيد النصح للناس والبيان لهم.

أهداف القسم وفائدته في القرآن الكريم:

١ -. تأكيد الخبر وتقريره وتلك عادة كانت عند العرب الذين كانوا يقطعون كلامهم بالقسم لأن «القصد بالقسم تحقيق الخبر وتوكيده»[2] فى نفس السامع.

٢ - القسم يُزيل تَرَدُّدَ المخاطب كما يُخفف حِدّة إنكاره، ومن هنا نلاحظ أن القسم يكثر فى الآيات المكية لأن أهل مكة كانوا أهل عِناد ومكابرة؛ والقسم من المؤكدات التى تُزيل تردّدهم وإنكارهم.

٣ - إصغاء السامع إلى المتكلم ذلك بأن المتكلم إذا شرع فى القسم وثق السامع أنه سيُضمِّن كلامه أمراً خطيرا فيصغى إليه وحينما يُدْرج الدليل فى صورة قسم فَتَتِم الحُجة على المعاندين.

فالقسم من المؤكدات المشهورة التى تمكن الشىء فى النفس وتُقويه وقد نزل القرآن الكريم للناس كافة ووقف الناس منه مواقف مُتباينة؛ فمنهم الشاك ومنهم المنكر ومنهم الخصم الألَدّ المعاند المكابر.

فالقسم فى كلام الله يزيل الشكوك ويُحبِط الشبهات ويُقيم الحجة ويؤكد الأخبار ويقرر الحكم فى أكمل صورة وأتمها.

ولكننا نرى أن المعاندين المكابرين مهما أتتهم الحجج والبراهين فإنهم يُكذبون

---

(١) من الآية ١٨٧ آل عمران.

(٢) الإتقان للسيوطى جـ٢ ص ١٣٢.

ولايؤمنون وصـــدق الحق إذ يقـول ﴿فـإنهـم لا يكذبونك ولـكن الظالمـين بآيات الله يجحدون﴾ [1] يعنى ينكرون ويكفرون.

٤ - من أهداف القسم كذلك تأكيد الحجة على وحدانية الإله الأعظم كما فى مطلع سورة الصافات والصافات صَفًا - إلى أن قال: إن إلهكم لواحد[2] .

افتتح الله تعالى هذه السورة بالقسم ببعض مـخلوقاته إظهـارا لعظم شأنها وكـبر فـوائدها وتنبيـها للعـبـاد على جلالة قـدرها، وقد أقـسم بهـذه الطوائف من الملائكة الصافات قوائمها فى الصلاة أو الذكر أو أجنحتها فى ارتقاب أمر الله.

فمن أراد الله له الهداية لتوحيده جل فى علاه انشرح صدره لِذلك واعتبر بكلام الله وبقسـمه ومن لم يرد له ذلك لم تزده الآيات والعِظات والأقـسام إلا نفورا واسـتكبارا وعِناداً.

٥ - كما يهدف القـسـم فى القرآن الكريم إلى تأكيد إثبات صـدق النبى محمد ﷺ فى قوله سبحانه: ﴿يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين﴾[3] .

وقد أقسم الله جل وعـلا بالقرآن على صدق رسوله ﷺ، ونـظرا لأن القرآن مُعْجز وإعجازه يُثبت صدق رسوله الكريم صلوات الله وسـلامه عليه بذلك كان القسم إشارة إلى بُرهان نبوّته فكان الـقرآن أقام الدليل على صـدق الرسول ﷺ مرتين مـرة بالقسم ومرة بجواب القـسم والمؤكد بحرف التأكيد (لمن المرسلين) باللام لَمنَ.

٦ - ويهدف القسم أيضا إلى التّنْويه بشأن المقسم به ومنه قوله تعالى: فى شأن النبى ﷺ ﴿لَعَمْرك إنّهم لَفى سكرتهم يَعْمهون﴾[4] .

يعنى لفى ضلالهم يتـخبّطون، فهو يقـسم بحياة الرسول ﷺ بأنهم يتـخبطون فى الضلال.

---

(١) من الآية ٣٣ الأنعام.
(٢) الآيات من ١ - ٤ الصافات.
(٣) الآيات من ١ - ٣ يس.
(٤) آية ٧٢ الحجر.

فيقصد بذلك القسم إعلاء شأن النبى ﷺ وإظهار منزلته عند الله لتعرف الأمم التى بعثه الله إليها قَدره ﷺ وحُبّ الله تعالى له.

٧ - ومن أهداف القسم إبراز المعقول فى صورة المحس، وذلك أن الأمر المعقول إذا صُوِّر فى شىء حسّى فإن العقل يستوعبه أكثر مما لو كان مُجَرّدا عن الحس ومثله تشبيه الوحى بالضحى فى رائعة النهار فى سورة الضحى وتشبيه الباطل بالليل وانتصار الحق بالنهار فى قوله سبحانه ﴿والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى﴾[١] ظَهَرَ، والظلمة التى تتبدد عن نهار مُشْرق مثل الباطل الذى يُمْحَى أمام الحق[٢] - إذا ظهر، فالحق أبلج واضح كالشمس والباطل تلجلج كأنه ظلام دامس.

وهذه من الصور البديعية التى تحتاج إلى علم مستنير فى فهمها وإدراكها مما يدل على أنها من لدن حكيم عليم سبحانه وتعالى.

٨ - إظهار منزلة ما فى المقسم به كالقسم بالقرآن وما اشتمل عليه من هدايات يقول ابن القيم عن القرآن «وأقسم الله به لعظمته وجلالته وما تضمنه من آيات ربوبيته وأدلة توحيده وهداية خلقه»[٣] لايهتدى لهذا إلا من أراد الله له الهداية والسداد والرشاد.

٩ - زيادة تأكيد أدلة إثبات البعث والنشور لأن القوم تمادوا فى إنكار البعث واستبعاده ومنها:

(١) قوله تعالى : ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم﴾[٤].

قال المشركون لا قيامة أبدا ولابعث ولانشور وهو إنكار لمجيئها أو استبطاء واستهزاء بالوعد به فقل لهم أقسم بالله العظيم لتأتينكم الساعة فإنها واقعة لامحالة بإذن الله تعالى.

(ب) وقوله كذلك : ﴿زعم الذين كفروا أن لن يُبعثوا ، قل بلى وربى لتبعثن ثم

---

(١) آيات ١، ٢ سورة الليل.

(٢) بديع القرآن لابن أبى الأصبع ص١١٤.

(٣) التبيان فى اقسام القرآن لابن قيم الجوزية ص١٩٤.

(٤) من الآية ٣ سبأ.

لتنبؤن بما عملتم﴾[1] - أى ادعى الكفار وظنوا أن الله لن يبعثهم من قبورهم، قل لهم أن ليس الأمر كما زعمتم وأقسم بربى لتخرجن من قبوركم ولتبعثن.

(جـ) وقوله سبحانه: ﴿ويستنبؤنك أحق هو قل إى وربى إنه لحق وما أنتم بمعجزين﴾[2].

ويستخبرونك يامحمد (ﷺ) يعني يسألونه فيقولون: أحق ما وعدتنا به من العذاب والبعث؟ قل نعم والله إنه كائن لاشك فيه ولستم بمعجزين الله بهرب.

ويقول الطبرى: «ولستم بفارين من العذاب بل هو مدرككم لامحالة»[3] - فأنتم فى قبضته وسلطانه.

وفى هذه الأقسام الثلاثة تأكيد لوقوع البعث وأنها صادرة من رَبّ رسول الإنسانية محمد صلوات الله وسلامه عليه وما جرّبوا عليه كذبا قط كما أنهم كانوا يعظمون الأيمان ويُقدّسونها.

محاسن القسم في القرآن وما يدخله من ألوان البديع:

١ - «التماثل فى الألفاظ وَزْنا مع اختلاف المعنى»[4] - وذلك بدون تكلف ولا إفساد للمعنى كقوله تعالى: ﴿والسماء والطارق وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب إن كل نفس لمّا عليها حافظ﴾[5] فنلاحظ أن كلمات الطارق والثاقب وحافظ متماثلات لفظا مختلفات معنى.

أقسم بالسماء وبالكواكب النيرة التى تظهر ليلا وتختفى نهارا، وما أدراك ما الطارق استفهام للتفخيم والتعظيم، وما الذى أعلمك حقيقة هذا النجم فهو ثاقب يعنى مُضىء يثقب الظلام بِضيائِه وفى قوله ﴿إن كل نفس لما عليها حافظ﴾ فهو جواب القسم أى

---

(١) من الآية ٧ التغابن.

(٢) آية ٥٣ يونس.

(٣) تفسير الطبرى جـ ١١ ص ١٢٢.

(٤) بديع القرآن لابن ابى الأصبع ص ١٠٧.

(٥) الآيات من ١ - ٤ سورة الطارق.

ما كل نفس إلا عليها حافظ من الملائكة

٢ - الالتزام بحرف أو حرفين فأكثر قبل الحرف الأخير على ألا يلحق بهذا الالزام كلفة وذلك كقوله تعالي: ﴿ والطور وكتاب مسطور﴾[1] فالطاء قبل الواو لازمة فى كليهما والواو لزمت الطاء فيهما معا وهذا سجع غير متكلف .

فقد أقسم الله تعالى بجبل الطور الذى كلم الله عليه موسى، وأقسم بالكتاب الذى أنزله على خاتم رسله وهو القرآن العظيم المكتوب.

٣ - من أنواع البديع فى القسم ما يتضمنه من التفات بأن يقدم مذكورين يخبر عن الأول منهما وينصرف عن الإخبار عنه إلى الإخبار عن الثانى ثم يعود فينصرف عن الإخبار عن الثانى إلى الإخبار عن الأول وذلك مثل قوله تعالى: ﴿إن الإنسان لربه لكنود وإنه على ذلك لشهيد﴾[2] يقول الراغب: «أى كفور لنعمه كقولهم أرض كنود إذا لم تُنبِت شيئا»[3] وكانت جرداء لا زرع فيها ولا ضرع.

«ففى قوله تعالى وإنه على ذلك لشهيد أى أن الله يعلم ذلك ويشهد بذلك فهنا انصرف عن الإخبار عن الإنسان إلى الإخبار عن الربّ سبحانه ثم انصرف عن الإخبار عن الربّ عز وجل إلى الإخبار عن الإنسان مرة أخرى بقوله ﴿وإنه لحُبِّ الخير لشديد﴾ يعنى: «لحب المال الكثير»[4]، وهذا نوع حسن من الالتفات قلَّ نَظيره»[5] - حيث إنه يؤدى إلى إعمال فكر الإنسان فى حكمة النسج القرآنى البديع البليغ الذى أعيا الفصحاء وأعجز البلغاء وحيّر الألباء على حد سواء.

بهذا ينتهى الحديث عن القسم فى القرآن الكريم، والله الموفق والمعين إلى صراط مستقيم وهو نعم المولى ونعم النصير.

---

(١) الآيات ١ - ٢ سورة الطور.
(٢) الآيات من ٥ - ٦ العاديات.
(٣) مفردات الراغب ص ٤٦٠.
(٤) مفردات الرغب ص ١٦٣.
(٥) بديع القرآن لابن أبى الأصبع ص ٤٥.

مسك الختام

هذا ما مَنَّ الله علينا من معارف فى هذا العلم الواسع الشُّعَب، حاولنا فيه جهد الطاقة وهو جَهْد المقلّ أن نحصر شتى موضوعاته فيما يعود بالنفع فى العاجل والآجل، إنّ ربى لسميع الدُّعاء مُجيب النِّداء.

والله العلّى العظيم نسأل أن يجعلها خالصة مُخْلِصة لوجهه نافعة لِعباده إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير.

ربنا عليك توكلّنا وإليك أنَبْنا وإليك المصير.

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، سبحانك لاعلم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

سبحان ربِّك رَبِّ العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

المؤلف

قائمة المراجع

أولا: القرآن الكريم.

ثانيا: مراجع التفسير:

١ - روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم للألوسى البغدادى المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ - طبعة دار الفكر بيروت سنة ١٩٧٨م .

٢ - تفسير الطبرى : لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى المتوفى ٣١٠هـ - طبعة دار المعارف بالقاهرة ١٣٧٤ هـ .

٣ - الجامع لأحكام القرآن : لأبى عبدالله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى المتوفى ٦٧١ هـ - دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ١٩٦٧م.

٤ - تفسير القرآن العظيم: للإمام الحافظ عماد الدين أبى الفداء إسماعيل بن كثير القرشى المتوفى ٧٧٤ هـ - طبعة الحلبى.

٥ - الدر المنثور فى التفسير بالمأثور : للإمام جلال الدين السيوطى المتوفى ٩١١ هـ - دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت.

٦ - التفسير الكبير للرازى: للإمام فخر الدين الرازى المتوفى ٦٠٦ هـ - دار الكتب العلمية طهران.

٧ - مقدمة فى أصول التفسير لابن تيمية.

٨ - بغية المسلم من تفسير سورة مريم للأستاذ الدكتور/ حمودة محمد داود القاهرة سنة ١٩٨٢ .

ثالثا : مراجع الحديث:

١ - صحيح البخارى : تحقيق الدكتور مصطفى ديب.

دار ابن كثير دمشق - بيروت الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٧م .

٢ - صحيح مسلم : للإمام أبى الحسين سليم بن الحجاج القشيرى المتوفى ٢٦١ هـ تحقيق محمد فؤاد عبدالباقى طبعة الحلبى سنة ١٩٥٥م.

٣ - سنن الترمذى : لأبى عيسى محمد بن عيسى بن سورة المتوفى سنة ٢٧٩ هـ دار الكتب العلمية بيروت.

٤ - سنن أبى داود : للإمام الحافظ أبى داود سليمان بن الأشعث المتوفى سنة ٢٧٥ هـ طبعة دار الكتب العلمية بيروت.

٥ - سنن النسائى المجتبى للحافظ أحمد بن شعيب بن على المتوفى سنة ٣٠٣ هـ طبعة دار الكتب العلمية - بيروت.

٦ - غاية النهاية لابن الجزرى المتوفى سنة ٦٣٠ هـ - طبعة بيروت.

٧ - فتح البارى شرح البخارى لابن حجر العسقلانى المتوفى، ٨٥٢ هـ المطبعة السلفية سنة ١٣٨٠ هـ.

رابعا: مراجع علوم القرآن:

١ - البرهان فى علوم القرآن: للإمام بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشى المتوفى سنة ٧٩٤ هـ - طبعة الحلبى سنة ١٩٧٢.

٢ - الإتقان فى علوم القرآن: لجلال الدين عبدالرحمن السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ طبعة الحلبى سنة ١٩٥١.

٣ - مناهل العرفان فى علوم القرآن: للشيخ محمد عبدالعظيم الزرقانى طبعة الحلبى.

٤ - التفسير والمفسرون : للدكتور محمد حسين الذهبى: الطبعة الرابعة مكتبة وهبه سنة ١٩٨٩م .

٥ - أسباب النزول وبهامشه الناسخ والمنسوخ: للواحدى النيسابورى المتوفى سنة ٤٦٨هـ عالم الكتب بيروت.

٦ - بديع القرآن لابن أبى الأصبع.

٧ - التبيان فى أقسام القرآن لابن قيم الجوزية.

٨ - مباحث فى علوم القرآن: لمناع القطان - مؤسسة الرسالة - الطبعة الثامنة بيروت سنة ١٩٨١ م.

٩ - تأريخ القرآن لإبراهيم الإبيارى دار القلم سنة ١٩٦٥.

خامسا: مراجع قراءات:

إتحاف فضلاء البشر فى القراءات الأربع عشر للبناء المتوفى سنة ١١١٧ هـ - طبع ونشر عبدالحميد أحمد حنفى - القاهرة .

سادسا : معاجم:

١ - معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهانى المتوفى ٥٠٢ هـ - دار الكتاب العربى بيروت نوفمبر سنة ١٩٧٢.

٢ - لسان العرب لابن منظور الإفريقى: طبعة بيروت وطبعة دار المعارف سنة ١٩٨٠.

٣ - مختار الصحاح : لمحمد بن أبى بكر بن عبدالقادر الرازى: المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٩١٩م.

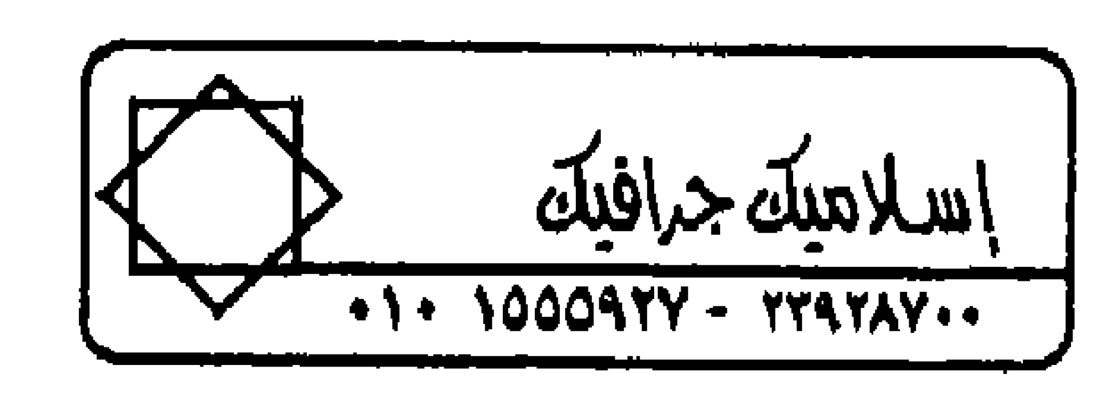
٤ - المصباح المنير: للشيخ الفيومى: المتوفى سنة ٧٧٠ هـ - المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٩٠٩م.

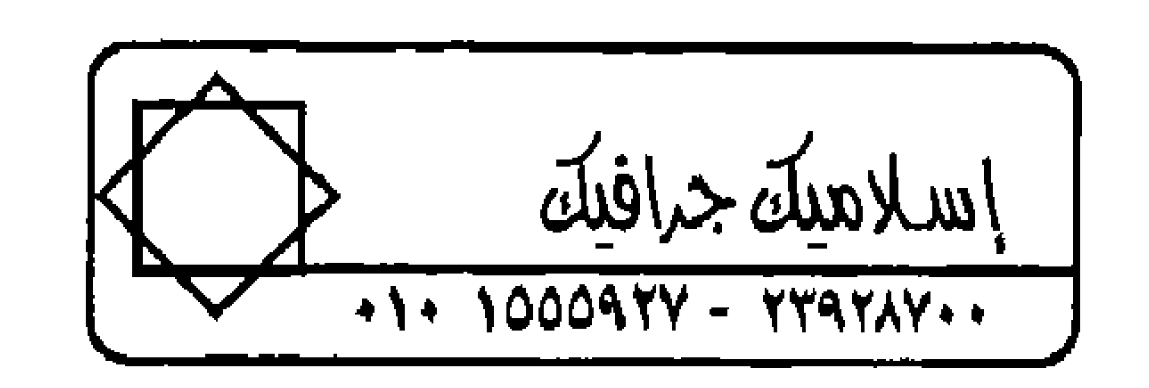
سابعا : مراجع تاريخ الصحابة:

أسد الغابة فى معرفة الصحابة: لأبى الحسن على بن محمد الجزرى المتوفى سنة ٦٣٠هـ القاهرة نوفمبر سنة ١٩٥٤ .

ثامنا : الحولية الثامنة لكلية الدراسات الإسلامية سنة ١٩٩٠.

الفهـــرس


إسلاميك جرافيك
٠١٠ ١٥٥٥٩٢٧ - ٢٢٩٢٨٧٠٠



رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
١٩٩١٢ / ٢٠٠٩

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف بالكتاب

١ - هذا الكتاب ضرورى لكل مسلم يريد أن يفهم أسس وقواعد تفسير كتاب الله تبارك وتعالى ليكون على بيّنة من أمره وعلى وضح السبيل.

٢ - فقد اشتمل على معارف شتى تُعين المفسر على فهم كتاب الله تعالى ومفهوم علوم القرآن وحكم و أسرار نزول القرآن الكريم مفرقًا وحِكم أسباب النزول، وفوائد معرفة المكى والمدنى، ووجوه الحكمة فى تعدد القراءات والحكم من وراء المتشابهات، وفوائد معرفة الناسخ والمنسوخ وحِكم الله فيما وراءه، وفوائد معرفة الأمثال التى ضربها الله تعالى فى كتابه، والأهداف والفوائد من وراء القصص القرآنى وأهداف القسم فى القرآن الكريم بوجه عام، وعير ذلك.

كتب أخرى للمؤلف:

١ - روح الأمانة والعدالة فى القرآن والسنة وأهميتهما فى صلاح الإنسان والجماعة وهى قواعد السلوك فى مجالات العبادات والمعاملات.

٢ - هدى القرآن فى تفسير سورة لقمان - دراسة تحليلية وروحية لكلام الله العزيز الحكيم.

٣ - فيض من نور الرحمن فى تفسير ربع (ليس البر) من سورة البقرة، دراسة تحليلية وروحية كذلك.

٤ - أضواء على كتابة البحث أو الرسالة، ويشمل قواعد الكتابة والتأليف العلمى.